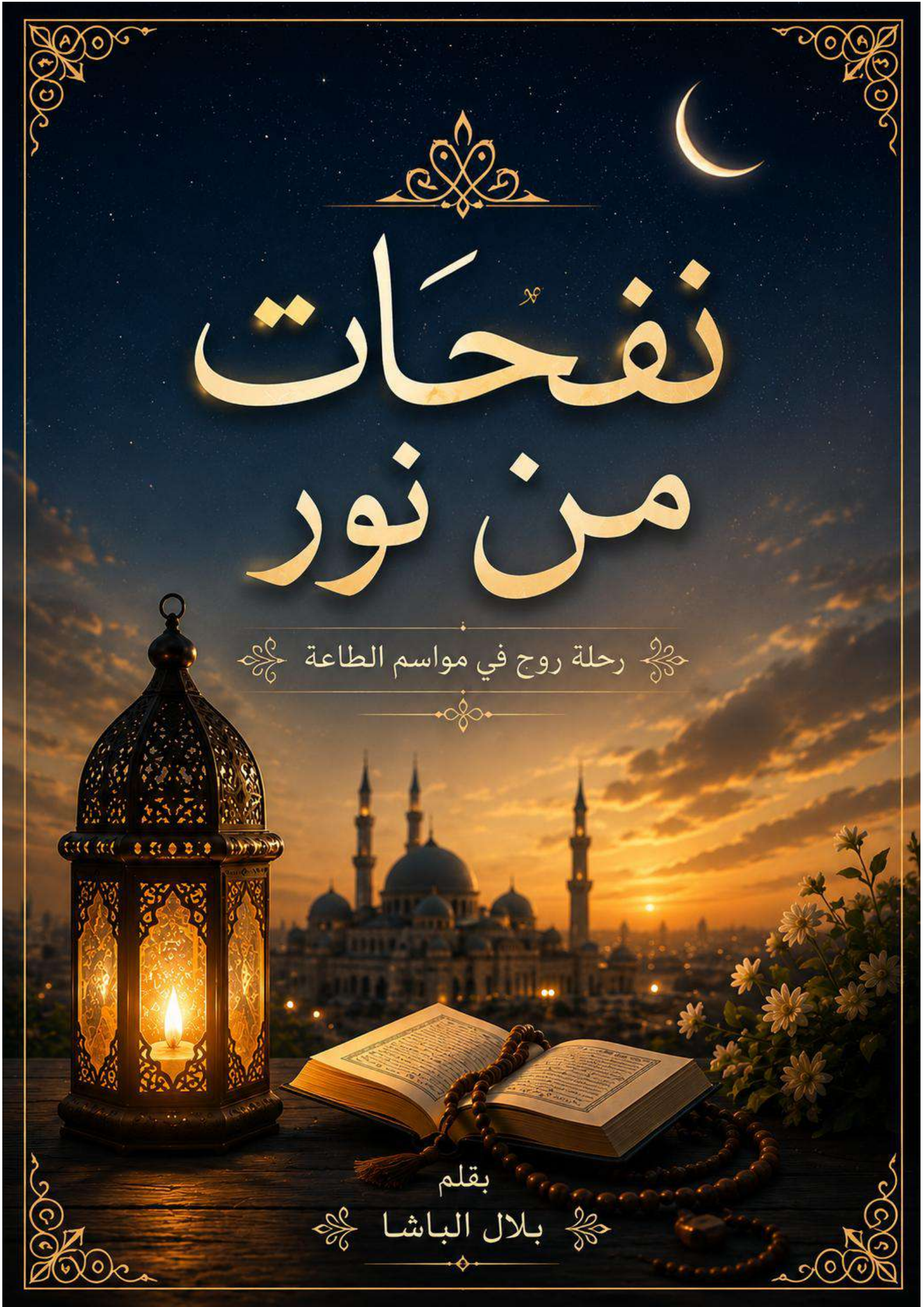
نفحات من نور
رحلة روح في مواسم الطاعة
بقلم
بلال الباشا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل للقلوب حياةً لا تكون إلا بذكره، وللأرواح سكينةً لا تُنال إلا بالقرب منه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد...

في زحام الحياة، وبين ضجيج الأيام، ينسى الإنسان أحيانًا أن قلبه يحتاج إلى لحظاتٍ من السكون، كما تحتاج الأرض إلى المطر. يركض خلف مسؤولياته، ويثقل كاهله ما يمر به من هموم، حتى يصبح أقرب إلى التعب منه إلى الطمأنينة. لكنه ما إن يقف بين يدي ربه، أو يقرأ آيةً بتدبر، أو يرفع كفيه بالدعاء، حتى يشعر أن في داخله نورًا يعود، وأن ما انطفأ فيه قد بدأ يشرق من جديد.

هذه الصفحات ليست إلا محاولاتٍ لالتقاط شيءٍ من ذلك النور.

هي كلمات كُتبت في أوقاتٍ مختلفة، لكنها اجتمعت على غايةٍ واحدة؛ أن تذكّر القلب بمن لا يغيب، وأن تفتح نافذةً يطل منها القارئ على معاني الإيمان والرجاء، بعيدًا عن صخب الدنيا وضجيجها.

ولعل أجمل ما في الخاطرة أنها لا تُثقل القارئ بكثرة الكلام، بل تهمس في أذنه همسًا، وتترك له مساحةً ليتأمل، ويُكمل المعنى بقلبه قبل عقله. لذلك لم تكن هذه الصفحات بحثًا، ولا درسًا، ولا موعظةً طويلة، وإنما كانت رفيقًا هادئًا لمن أراد أن يستريح قليلًا في رحاب الطاعة، ويجدد صلته بالله.

وقد اخترت لهذا الكتاب اسم «نفحات من نور»؛ لأن النور لا يأتي دائمًا دفعةً واحدة، بل قد يكون نفحةً صغيرة، أو كلمةً صادقة، أو آيةً يتدبرها العبد، فتغيّر في قلبه ما لم تغيّره سنواتٌ من الغفلة.

فإن وجدت، أيها القارئ، بين هذه الصفحات ما يشرح صدرك، أو يوقظ في قلبك شوقًا إلى الله، فاحمد الله على فضله، وإن وجدت غير ذلك، فاعذر تقصير كاتبٍ يرجو أن يكون أول المنتفعين بما كتب.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا جميعًا قلوبًا تعرفه، وأرواحًا تأنس بذكره، وأعمالًا تلقاه بها وهو راضٍ عنا.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الكاتب: بلال الباشا

بين يدي القارئ

أيها القارئ الكريم...

لا تبحث في هذه الصفحات عن البلاغة وحدها، ولا عن كثرة الكلمات، بل ابحث عما يلامس قلبك، ويوقظ في نفسك معنىً غاب عنها، أو يفتح لك بابًا إلى التفكر في نعم الله ورحمته.

هذه الخواطر لم تُكتب لتكون مجرد كلمات متفرقة، وإنما يجمعها مقصد واحد؛ أن تكون نفحاتٍ من نور، يجد فيها كل قلب ما يناسب حاله، وكل روح ما يذكرها بربها

فإن وجدت كلمةً أثرت فيك، فاحمد الله الذي ساقها إليك، وإن مررت بخاطرة لم تلامس قلبك، فربما كُتبت لقلبٍ غير قلبك.

أسأل الله أن يجعل قراءتك لهذه الصفحات بداية خير، وزيادة يقين، وسكينةً تملأ قلبك، وأن يجعلنا وإياك من أهل النور في الدنيا والآخرة.

قبل أن تبدأ الرحلة

عزيزي القارئ...

قبل أن تبدأ صفحات هذا الكتاب، أريدك أن تعرف شيئًا واحدًا:

هذا الكتاب لم يُكتب ليخبرك بما يجب أن تعرفه فقط، بل ليأخذ بيدك في رحلةٍ من سؤالٍ إلى سؤال، ومن معنى إلى معنى، حتى تصل في نهايتها إلى السؤال الأكبر:

ماذا أريد أن أكون حين ألقى الله؟

ستمرّ في هذه الصفحات على فصولٍ قد يبدو كل واحدٍ منها مختلفًا عن الآخر، لكنها في الحقيقة حلقاتٌ في طريقٍ واحد؛ طريق القلب إلى الله.

سنبدأ بسؤالٍ لا بد أن يُبنى عليه كل شيء:

كيف أوقن بالله حقًا؟

ومن هنا تبدأ رحلتنا مع **اليقين**؛ لننظر في وعد الله وقدرته ورحمته، ونتعلم كيف يثبت القلب حين تتغير من حوله الأشياء.

ثم قد يقول القلب:

وماذا أفعل حين أؤمن، ثم أُبتلى؟

وهنا نصل إلى **الصبر**؛ كيف أثبت حين أتعب؟ وكيف أحتسب حين لا أفهم الحكمة من وراء ما يحدث لي؟

ثم يأتي سؤالٌ آخر:

وماذا لو كان ما يحدث لي شيئًا لا أريده؟ كيف أرضى باختيار الله؟

فننتقل إلى **الرضا**، لنتعلم أن اختيار الله لعبده ليس كاختيار الإنسان لنفسه، وأن وراء ما نراه أحيانًا من المنع والعطاء حكمةً ورحمةً لا نحيط بها.

ثم نسأل:

إذا أخذت بالأسباب، فعلى من يعتمد قلبي؟

وهنا يأتي **التوكل**؛ أن تعمل، وتسعى، وتأخذ بالأسباب، لكن لا تجعل قلبك أسيرًا لها، بل تعلّقه بمن بيده الأمر كله.

ثم يأتي سؤالٌ آخر:

إذا أصلحت ما بيني وبين الله، فكيف يظهر ذلك في حياتي؟

فنصل إلى **الإحسان**؛ أن يتحول ما في القلب إلى عملٍ، وخلقٍ، وكلمةٍ، ومعاملةٍ، وأثرٍ طيبٍ فيمن حولك.

ثم نصل إلى الفصل الأخير:

إلى لقاء الله

وهنا يتغير السؤال.

لم نعد نسأل فقط: ماذا أؤمن؟ وكيف أصبر؟ وكيف أرضى؟ وكيف أتوكل؟ وكيف أحسن؟

بل نسأل:

إلى أين أمضي؟

وماذا أعددت لذلك اللقاء؟

فالدنيا مهما طالت قصيرة، والطريق مهما امتد له نهاية، وكل واحدٍ منا يمضي يومًا بعد يوم نحو لقاءٍ لا مفر منه.

وهنا لن أحدثك عن الموت لأخيفك، ولا عن الآخرة لأجعلك تترك الدنيا؛ بل سأدعوك إلى أن تنظر إلى حياتك من مكانٍ أبعد، وأن تسأل نفسك بصدق:

إذا كان لقائي بالله آتيًا لا محالة... فكيف أريد أن ألقاه؟

ولعل هذا هو السؤال الذي يجب أن يبقى معك بعد أن تطوي الصفحة الأخيرة.

فلا تقرأ هذه الفصول وكأنك تقرأ كلامًا عن غيرك.

اسأل نفسك في كل فصل:

أين أنا من هذا؟

فربما وجدت في آيةٍ ما جوابًا لسؤالٍ حملته طويلًا، وربما وجدت في خاطرةٍ كلمةً كانت تحتاجها روحك، وربما مررت على صفحةٍ ثم شعرت أن الحديث كان بينك وبين نفسك.

وهذا ما أرجوه من هذا الكتاب...

ألا يكون مجرد صفحاتٍ تُقرأ ثم تُنسى، بل خطوةً صغيرةً في طريق العودة إلى الله.

فإن خرجت منه بمعنى واحدٍ غيّر شيئًا فيك، أو بعملٍ صالحٍ بدأت به، أو بذنبٍ عزمت أن تتركه، أو بقلبٍ عاد إلى ربه بعد طول غفلة...

فقد بدأت الرحلة حقًا.

والآن... لنبدأ.

الفصل الأول

نفحات اليقين

* * *

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

"إذا امتلأ القلب يقينًا بالله، لم تعد الدنيا قادرة على سلب طمأنينته."

✦ ❖ ✦ أليس الله بكافٍ؟ ✦ ❖ ✦

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾

آيةٌ واحدة... إذا استقرّت في القلب، ذاب معها الخوف، وسكنت الهموم، واطمأنت النفس إلى كفاية الله.

يا من أقلقك المستقبل، وأتعبك التفكير في الرزق، وأثقلتك الأيام بما فيها من ابتلاءات... توقّف لحظة، ودع هذا السؤال الرباني يخاطب قلبك:

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾

إذا كان الله هو الكافي، فما الذي تخشاه؟

وإذا كان هو المتكفّل بأمرك، فلِمَ يستبدّ بك القلق؟

قد تتأخر بعض الأمنيات، وقد يطول انتظار الفرج، لكن كفاية الله لا تعني أن تجري الأمور كما نريد، وإنما أن يجريها سبحانه على الوجه الذي فيه الخير لنا، وإن خفيت علينا حكمته.

فإذا تكفّل الله بأمرك، فلن يضرّك تأخر الأسباب، ولن تُربكك تقلّبات الحياة؛ لأنك في كفاية الكريم، وتحت تدبير الحكيم.

فاجعل ثقتك بالله أكبر من مخاوفك، وأحسن التوكّل عليه، وارضَ بتدبيره؛ فمن كان الله كافيه، فلن يضيّعه أبدًا.

✦ ❖ ✦ فوّض أمرك إلى الله ✦ ❖ ✦

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾

آيةٌ تفيض سكينةً ويقينًا، وتعلّم القلب أن يجعل ملجأه إلى الله وحده إذا ضاقت السبل، وعظمت الحيرة.

فكم من همٍّ أثقل صدرك، وكم من أمرٍ أرهق تفكيرك، ولو ظللت تحمله وحدك، لما ازداد إلا ثقلًا.

لكن المؤمن يعلم أن وراء كل أمرٍ ربًّا حكيمًا، يعلم ما خفي عنه، ويقدّر له الخير، وإن غابت عنه الحكمة.

والتفويض ليس تركًا للأسباب، ولا يأسًا من السعي، بل هو أن تبذل ما تستطيع، ثم تُسلّم النتائج لله بقلبٍ راضٍ مطمئن.

وفي هذه المنزلة يستقر في القلب أن الله هو الكافي، وأن تدبيره خيرٌ من تدبير العبد لنفسه، واختياره أرحم من اختيار العبد لنفسه.

فإذا اشتدت عليك الهموم، وأغلقت الأبواب، وردّد بقلبٍ حاضر:

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾

فما خاب من فوّض أمره إلى الله، ولا ضاع من أحسن التوكّل عليه.

فوّض أمرك إلى الله، واعمل بالأسباب، ثم اطمئن؛ فإن الله يتولى من صدق معه، ويختار له من الخير ما لا يبلغه تدبيره لنفسه.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦ أحسنِ الظنَّ بربك✦ ❖ ✦

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

سؤالٌ يفتح للقلب باب المحاسبة، ويكشف حقيقة ما يحمله العبد في قلبه من ظنٍّ بربه.

فما ظنّك بربٍّ خلقك، وربّاك، وأحاطك بنعمه، وستر تقصيرك، وفتح لك باب التوبة كلما عدت إليه؟

أفيليق بعد هذا كله أن تظن به إلا الخير؟

إن المؤمن قد تضيق به الأيام، وقد تتأخر عليه الأمنيات، لكنه لا يسيء الظن بربه؛ لأنه يعلم أن تدبير الله خيرٌ من تدبيره، وأن رحمته أوسع من أمله، وأن لطفه أقرب إليه مما يظن.

فأحسن الظن بربك عند الدعاء، وأحسن الظن به عند البلاء، وأحسن الظن به عند تأخر الفرج؛ فكم من خيرٍ أخفاه الله عنك، وكم من رحمةٍ جاءت في صورة ابتلاء.

وكلما ازددت معرفةً بالله، وبأسمائه وصفاته، ازداد قلبك طمأنينةً ويقينًا، وأدركت أن الله لا يخيّب من رجاه، ولا يضيّع من أحسن التوكل عليه.

فأحسن الظن برب العالمين دائمًا؛ فمن عرف ربَّه، اطمأن قلبه، واستراح إلى قضائه، وانتظر الخير من مولاه في كل حال.

✦ ❖ ✦ فضلُ الله أعظم ✦ ❖ ✦

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾

تبدأ الآية بكلمةٍ تختصر أبواب الخير كلها: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾.

فكل نعمةٍ تراها، وكل توفيقٍ تناله، وكل فتحٍ يُكتب لك، إنما هو فضلٌ من الله قبل أن يكون ثمرةً لقدرتك أو نتيجةً لأسبابك.

لقد آتى الله داود عليه السلام من فضله ما بهر العقول؛ آتاه صوتًا تُسبّح معه الجبال والطير، وألان له الحديد، وآتاه الملك والحكمة، وكل ذلك لم يكن إلا فضلًا من الله يؤتيه من يشاء.

فإذا ضاقت بك السبل، فلا تظن أن خزائن العطاء قد نفدت، بل تذكّر أن فضل الله لا تحدّه الأسباب، ولا تقف دونه العوائق. وإذا أراد سبحانه أن يفتح لعبده بابًا من فضله، هيّأ له من الأسباب ما لم يكن يخطر له على بال.

فخذ بالأسباب، واجتهد فيما ينفعك، لكن لا تعلّق قلبك بها، بل علّقه بواهبها، فإن الفضل كله بيده، يؤتيه من يشاء بحكمةٍ ورحمة.

فاسأل الله من فضله، وأحسن الرجاء به، واعلم أن ما عند الله أعظم مما يتصوره العبد، وأوسع مما يأمله قلبه.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦ لا مستحيل مع الله✦ ❖ ✦

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ما أعظمها من حقيقة، وما أعظم أثرها إذا استقرت في القلب... أن تعلم أن لك ربًّا لا يعجزه شيء؛ فلا تجعل عجزك مقياسًا لما يستطيع الله أن يفعله.

قد ترى بابًا قد أُغلق، وطريقًا قد انقطع، وأمرًا لا ترى له مخرجًا، فتقول في نفسك: كيف يمكن أن يتغير هذا؟

لكن الله لا تحدّه الأسباب التي تراها، ولا تقف قدرته عند حدود ما تعرفه.

فما تراه أنت مستحيلًا، هو على الله يسير.

وما عجزت عنه الأسباب، لا يعجز عنه ربُّ الأسباب.

وما ظننته نهايةً، قد يجعل الله بعده أمرًا لم يخطر لك على بال.

فلا تجعل عجزك مقياسًا لقدرة الله.

اسعَ فيما تستطيع، وخذ بالأسباب، وابذل ما في وسعك، ثم اترك ما وراء قدرتك لمن بيده ملكوت كل شيء.

ولا تظن أن قدرة الله تعني أن يأتي الأمر دائمًا كما أردت؛ فقد يغيّر الله حالك، وقد يفتح لك بابًا لم تره، وقد يصرف عنك ما كنت تظنه خيرًا، وقد يمنحك من القوة والصبر ما يعينك على أمرٍ ظننته لا يُحتمل.

ففي كل الأحوال، الله قادر.

قد تتأخر الإجابة، وقد تتبدل الطرق، وقد يأتيك الخير في صورة لم تتوقعها، فلا تجعل تأخر ما ترجوه سببًا لاضطراب يقينك.

يكفيك أن تعلم أن الأمر كله بيد الله، وأنه سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فإذا ضاقت بك الأسباب، فلا تضيق برب الأسباب.

وإذا رأيت الأبواب مغلقة، فلا تظن أن أبواب الله قد أُغلقت.

وإذا عجزت، فتذكّر أن الله لا يعجزه شيء.

فاطمئن... فإن الذي تؤمن بقدرته، لا يعجزه أمرك.

✦ ❖ ✦يقينٌ لا يتزعزع✦ ❖ ✦

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾

قسمٌ عظيم من رب العالمين، يُلقي في القلب يقينًا لا يتزعزع... يقسم الله سبحانه بربوبيته للسماء والأرض أن ما أخبر به حقٌّ لا شك فيه، ثم يقرّب لنا هذا اليقين بأقرب شيءٍ إلى نفوسنا؛ بشيءٍ لا نشك فيه لحظة:

﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

فكما أنك لا تشك أنك تتكلم وتنطق، فلا ينبغي أن يتطرق الشك إلى قلبك فيما أخبرك الله به.

قد ترى أمرًا بعيدًا، أو تستبعد فرجًا لأن أسبابه لا تبدو أمامك، وقد تتأخر الإجابة حتى تظن أن ما دعوت به لن يكون... لكن الله لا يعجزه شيء، ولا تحدّ قدرته الأسباب التي تراها أنت.

فلا تجعل عينيك حَكَمًا على وعد الله.

ما لا تراه ليس بالضرورة بعيدًا، وما تأخر ليس بالضرورة محرومًا، وما عجزت عن فهمه لا يعني أنه خارج عن تدبير الله.

قد لا ترى كيف سيأتي الفرج، لكنك تعرف من بيده الفرج.

وقد لا تعرف متى يتحقق وعد الله، لكنك تعرف أن الله لا يخلف وعده.

وقد لا ترى نهاية الطريق، لكنك تمشي مطمئنًا لأنك تثق بمن يهديك إليه.

فاليقين ليس أن ترى كل شيء، بل أن تثق بالله حين لا ترى شيئًا.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

فطوبى لقلبٍ إذا اضطربت حوله الأشياء، ثبت هو؛ وإذا تأخرت الإجابة، لم يسئ الظن؛ وإذا أُغلقت الأبواب، لم يظن أن أبواب الله قد أُغلقت.

لأنه يعلم يقينًا:

ما دام الله قد قال... فهو حق.

ولو لم نرَ كيف، ولو لم نعرف متى، ولو وقفت الأسباب كلها عاجزة، فالله ربُّ السماء والأرض، ووعده حق.

✦ ❖ ✦إنَّ معي ربي✦ ❖ ✦

﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

كلماتٌ قالها موسى عليه السلام في لحظةٍ كانت الأسباب كلها توحي بالخوف.

البحر أمامه، وفرعون وجنوده خلفه، والقلوب مضطربة، والطريق في نظر الناس مغلق.

لكن قلب موسى كان ممتلئًا بيقينٍ أعظم من كل ما تراه العيون.

﴿كَلَّا﴾...

ليست كلمة نفيٍ فحسب، بل إعلان ثقةٍ بالله؛ فحين يكون الله مع عبده، لا تغلق الطرق، وإن بدت مستحيلة.

ثم قالها بكل يقين:

﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

وما أحوج المؤمن إلى هذا اليقين في أوقات الشدة؛ أن يستقر في قلبه أن الله معه، يؤيده، ويحفظه، ويهديه إلى حيث الخير، وإن خفي عليه الطريق.

كم من ضيقٍ ظننا نهاية، فإذا بالله يفتح منه بابًا لم يخطر لنا على بال، وكم من طريقٍ حسبناه مغلقًا، فإذا بتدبير الله يصنع منه مخرجًا.

فإذا اشتدت بك الكروب، فلا تجعل عينك معلقة بالأسباب وحدها، بل علّق قلبك برب الأسباب، وردّد بيقين:

﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

فمن كان الله معه، فلن يتيه، ولن يخذله، ولو ضاقت به الأرض بما رحبت.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦نداءُ الظلمات✦ ❖ ✦

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

آيةٌ تفتح باب الرجاء لكل قلبٍ أحاطت به الظلمات؛ ظلماتُ همّ، أو حزن، أو ضيقٍ لا يُرى له مخرج.

حين يشعر الإنسان أن الطرق قد انسدّت، وأن النجاة أبعد مما يتخيّل، تأتي قصة يونس عليه السلام لتهمس لقلبه بحقيقةٍ عظيمة:

أن للظلام ربًّا، وللشدة ربًّا، ولكل بابٍ أُغلق ربًّا قادرًا على فتحه.

كان يونس عليه السلام في أشد ما يكون من الضيق؛ ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت. وفي ظاهر الأمر، لم يكن هناك سببٌ يُرى للنجاة.

لكن حين لجأ إلى الله بقلبٍ منكسر، معترفًا بذنبه، قائلًا:

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

جاءه فرج الله من حيث لا يحتسب، وانكشفت الظلمات بنور رحمته، وما أعظم هذا الدعاء؛ جمع بين توحيد الله، وتنزيهه، والاعتراف بالتقصير، فكان مفتاحًا للنجاة.

وهكذا تكون النجاة؛ حين يصدق القلب في اللجوء إلى ربه، ويتجرد من حوله وقوته، ويلتجئ إلى من بيده كشف الكرب.

فإذا أحاطت بك ظلمات الحياة، فلا تيأس، وارفع قلبك إلى الله، وردّد هذا الدعاء بيقين، وأنت موقن أن الله يسمع دعاء المضطر، ويجيب من صدق في مناجاته.

فما دام الله ربَّ الظلمات، فلا ظلام يدوم.

✦ ❖ ✦حين يأمرُ الله النار✦ ❖ ✦

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾

آيةٌ تغرس في القلب يقينًا لا تهزّه الأسباب، وتعلّمه أن قدرة الله فوق كل ما يراه الإنسان مستحيلًا.

أُضرمت النار، واجتمع الناس، وأُعدّ كل شيء ليكون نهاية إبراهيم عليه السلام. وفي ظاهر المشهد، لم يكن هناك سبيلٌ للنجاة.

لكن فوق كل الأسباب أمرٌ لا يملكه إلا الله.

فلما شاء سبحانه، خاطب النار بكلمة واحدة، فانقلبت طبيعتها، وصارت بردًا وسلامًا على خليله.

وهكذا يعلّمنا الله أن الأسباب لا تعمل بذاتها، وإنما تعمل بأمره، وأن ما يعجز الخلق جميعًا لا يعجز ربَّ العالمين.

كم من أمرٍ ظننته نهاية، فإذا بالله يجعله بداية خير، وكم من كربٍ حسبته هلاكًا، فإذا هو طريقٌ إلى النجاة.

فإذا اشتد عليك البلاء، فلا تجعل قلبك أسيرًا لما تراه بعينيك، بل اجعله متعلقًا بقدرة الله، فإن الذي أمر النار أن تبرد، قادرٌ أن يبدّل حالك، ويكشف كربك، ويجعل لك من حيث لا تحتسب فرجًا.

فإذا أراد الله لعبده خيرًا، فلا يقف في وجه فضله شيء، لأن ربًّا يقول للنار: ﴿كُونِي﴾، لا يعجزه أن يجعل ما تخشاه سلامًا عليك.

❦ ❦ ❦

إذا وصلت إلى هنا، فاسمح لي أن أجلس معك قليلًا.

أعلم أن اليقين ليس كلمةً تُقال، ولا شعورًا يبقى حاضرًا في القلب كل يوم.

أعلم أن المؤمن قد تمرّ به لحظاتٌ يشتد فيها البلاء، ويطول فيها الانتظار، حتى يشعر وكأن في صدره معركةً لا يراها أحد.

صوتٌ يقول له: اصبر، فإن وعد الله حق.

وصوتٌ آخر يهمس له: إلى متى؟

وأعلم أن هذا الشعور قد يكون مؤلمًا، وأن القلب أحيانًا يثقل بما لا يستطيع وصفه.

ولستُ هنا لأعيد عليك ما قرأته في الصفحات الماضية، فقد سرنا معًا في رحلةٍ طويلة من معاني اليقين.

لكنني أريد أن أقول لك شيئًا واحدًا...

لا تظن أن مرورك بهذه اللحظات يعني ضعف إيمانك، أو أن الله قد تركك. فما دام قلبك يعود إليه، ويبحث عنه، ويطرق بابه، فأنت على الطريق.

وإذا ضاقت عليك الدنيا يومًا، وأثقلتك همومها، فلا تُكثر من مجادلة أفكارك، ولا تُرهق قلبك بمحاولة حمل ما لا تطيق.

قم بهدوء... توضأ.

وقف بين يدي الله وصلي ركعتين.

وأطل الحديث معه كما تُحدّث من تعلم أنه يسمعك، ويفهم ضعفك، ويرحم دمعتك.

قد لا يتغيّر كل شيء في تلك اللحظة، لكن شيئًا في قلبك سيتغيّر.

وإذا اطمأن القلب، هان عليه ما بقي من الطريق.

أسأل الله أن يجعل اليقين نورًا في قلبك، وسكينةً في صدرك، وثباتًا لا تزعزعه تقلبات الحياة.

ولعلنا نلتقي في الفصل القادم... وقد ازددنا جميعًا قربًا من الله.

الفصل الثاني

نفحات الصبر

* * *

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

"إذا استند القلب إلى الله، أصبح الصبر نورًا يضيء أشدَّ الطرق ظلمة."

✦ ❖ ✦من الجبِّ إلى التمكين✦ ❖ ✦

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لا تيأس إذا ضاقت بك الحياة، ولا تظن أن طول الابتلاء علامةٌ على أن الله قد تركك. فكم من طريقٍ بدأ بالألم، وكانت نهايته أجمل مما ظن صاحبه.

تأمل رحلة نبي الله يوسف عليه السلام؛ فقد تعاقبت عليه المحن منذ صغره. أُلقي في غيابة الجب، ثم بيع بثمنٍ بخس، ثم سُجن ظلمًا سنواتٍ طويلة. وكانت الأسباب كلها توحي بأن الفرج بعيد، لكن قلبه بقي ثابتًا على طاعة الله، صابرًا على قضائه، لا يساوم على دينه، ولا ييأس من رحمته.

ولم يكن سرُّ نجاته في قوةٍ يملكها، ولا في حيلةٍ يدبّرها، وإنما في أمرين جمعتهما هذه الآية العظيمة: التقوى والصبر.

فبالتقوى حفظ الله قلبه حين راودته امرأة العزيز، وبالصبر ثبّته في سنوات البلاء، حتى جاء وعد الله في الوقت الذي اختاره سبحانه، بعد أن اكتملت الحكمة من الابتلاء.

وحين اكتملت الرحلة، لم يُلخِّص يوسف عليه السلام قصته بالحديث عن الجب، ولا عن السجن، ولا عن التمكين، بل لخّصها في قاعدةٍ خالدة تصلح لكل زمان:

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

إنها رسالة لكل قلبٍ أثقله الانتظار، وأرهقه البلاء، وأوشك أن يفقد الأمل: قد يطول الطريق، لكن الله لا يضيع صبرًا كان له، ولا تقوى خفيت عن أعين الناس.

فاتقِ الله في الرخاء والشدة، واصبر على ما قدّره عليك، وثق أن الذي أخرج يوسف من ظلمات الجب والسجن إلى نور التمكين، قادرٌ أن يبدّل حالك إلى خيرٍ مما ترجو.

فاصبر... فما بين الابتلاء والتمكين، وعدٌ لا يُخلفه الله.

✦ ❖ ✦قبل أن تقع✦ ❖ ✦

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

ما أثقل المصيبة حين تقع فجأة، وما أسرع ما تمتلئ النفس بالأسئلة.

لكن الله يسبق تلك اللحظة بكلمةٍ تطمئن القلب:

﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾

أي أن ما أصابك لم يكن حدثًا عابرًا، ولا أمرًا خرج عن علم الله، بل كان معلومًا عنده، مكتوبًا في سابق علمه، قبل أن تُخلق أنت، وقبل أن تقع المصيبة.

قد يفاجئك البلاء، لكنه لا يفاجئ ربك.

وهنا يهدأ القلب؛ لأنه يعلم أن ما جرى لم يكن عبثًا، وأن وراء كل قدرٍ علمًا وحكمةً ورحمة.

وليس الإيمان بهذا مدعاةً لترك السعي أو الاستسلام، بل هو دعوةٌ إلى أن تبذل ما تستطيع، ثم ترضى بما يقضي الله بعد ذلك، مطمئنًا إلى أن اختيار الله لعبده خيرٌ من اختياره لنفسه.

فإذا نزل بك ما تكره، فلا تجعل أول ما يجري على لسانك: "لماذا حدث هذا؟" بل قل: قد سبق به علم الله، وما اختاره الله لعبده لا يخلو من حكمة، وإن خفيت عنه اليوم.

ما دام الأمر قد كُتب بعلم الله، فاصبر له بقلبٍ راضٍ، وأحسن الظن بربك.

فكم من قدرٍ أبكى صاحبه حين نزل، ثم حمد الله عليه حين انكشفت له حكمته. وربما بقيت الحكمة غائبةً عنك، لكن يكفيك أن تعلم أن الذي قدّرها هو أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦حتى يكتمل المشهد✦ ❖ ✦

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾

ليست كل الأقدار تُفهم من أول لحظة، وليست كل الأحداث تُرى حقيقتها من بدايتها.

قالها العبد الصالح لموسى عليه السلام، ليعلّمه أن الإنسان قد يعجز عن الصبر إذا حكم على الأمور بما يراه فقط، بينما وراء المشهد حِكمٌ لا يعلمها إلا الله.

وكم يحدث ذلك في حياتنا.

تمرّ بنا أقدارٌ تُحزننا، وأبوابٌ تُغلق في وجوهنا، وأمنياتٌ تتأخر، فنظن أن الخير قد ابتعد عنا؛ لأننا نظرنا إلى جزءٍ من القصة، ولم نرَ بقيتها.

لكن المؤمن يعلم أن علمه محدود، وأن حكمة الله أكمل من أن تُحيط بها العقول.

وقد يكشف الله لك مع الأيام بعض حكمته، فتدرك أن ما أحزنك يومًا كان يحمل لك خيرًا لم تكن تراه. وقد تبقى الحكمة غائبة عنك، فيكفيك أن تثق بربٍّ لا يقضي إلا بعلمٍ ورحمة.

فالإيمان ليس أن ترى كل شيء، بل أن تطمئن إلى من يرى كل شيء.

ولهذا كان الصبر من أعظم العبادات؛ لأنه ثقةٌ بالله قبل أن يكون احتمالًا للألم، وتسليمٌ لحكمته قبل أن تنكشف لك نتائج أقداره.

فإذا غاب عنك الفهم، فلا يغِب عنك الصبر.

وامضِ مطمئنًا، فربّك يعلم ما لا تعلم، ويختار لك من الخير ما قد لا تدركه إلا إذا اكتمل المشهد.

✦ ❖ ✦نداءُ الصابرين✦ ❖ ✦

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

آيةٌ تفيض سكينةً، وتفتح في قلب المبتلى بابًا واسعًا من الرجاء، ليست مجرد دعاءٍ قاله نبيٌّ كريم، بل مدرسةٌ يتعلّم منها كل من أثقله البلاء كيف يقف بين يدي ربّه.

لقد طال البلاء بأيوب عليه السلام، وتعاقبت عليه المحن، لكن قلبه بقي راضيًا بربه، ولسانه عامرًا بأدب العبودية.

لم يَعترض على قضاء الله، ولم يجعل شكواه إلى الناس، بل رفع أمره إلى من بيده كشف الضر، وقال في كلماتٍ يسيرة، عظيمة المعنى:

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

تأمل هذا الدعاء، فقد جمع بين إظهار الضعف، وتعظيم الرجاء، والثناء على الله. لم يكن فيه جزعٌ ولا سخط، وإنما قلبٌ يعلم أن رحمة الله أوسع من كل بلاء.

وهكذا يكون الصبر الجميل؛ أن تشكو ضعفك إلى الله، لا اعتراضًا على قضائه، بل افتقارًا إليه، وثقةً برحمته، ويقينًا أن الفرج بيده وحده.

فإذا اشتد عليك البلاء، فلا تحمل همّك وحدك، بل ارفعه إلى ربك، فهو يسمع أنين القلب قبل أن ينطق به اللسان.

واعلم أن ما يقدّره الله لعبده المؤمن لا يخلو من حكمةٍ ورحمة، وإن خفيت عليه في أول الطريق.

فاصبر، وأكثر من مناجاة ربك، فإن بعد صبر أيوب جاء الجبر، ورحمةُ الله أوسع من كل ما يثقل قلبك.

✦ ❖ ✦الصبر بالله✦ ❖ ✦

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

ليست كل قوةٍ تأتي من النفس، ولا كل ثباتٍ يصنعه الإنسان وحده.

فالله سبحانه لم يأمر نبيَّه بالصبر فحسب، بل بيّن له من أين يستمده، فقال:

﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

وكأن الآية تُعلّمنا أن الصبر ليس قوةً يملكها المرء متى شاء، بل هو توفيقٌ من الله، يفيض به على من صدق في اللجوء إليه.

فإذا اشتدّ البلاء، وضاق الصدر، وأثقلتك الأيام، فلا تعتمد على قوة نفسك وحدها، بل الجأ إلى ربك، واسأله أن يربط على قلبك، ويثبتك، ويعينك على ما ابتلاك به.

كم من إنسانٍ ظن أنه قادر على الاحتمال، فلما نزلت به الشدة أدرك ضعفه، وكم من عبدٍ رأى نفسه ضعيفًا، فاستعان بالله، فحمله الله بقوته، وثبّته بلطفه، حتى تجاوز ما كان يظنه فوق طاقته.

فإذا وجدت الصبر قد شقّ عليك، فلا تكتفِ بطلب الفرج، بل سلِ الله أن يرزقك الصبر حتى يأتي الفرج.

فمن أعانه الله، هان عليه ما أثقل غيره، ومن ثبّت الله قلبه، مضى مطمئنًا ولو اشتدت عليه المحن.

✦ ❖ ✦لا تستعجل✦ ❖ ✦

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ ﴾

قد يصبر الإنسان أيامًا، أو شهورًا، وربما سنوات... ثم يوشك أن يهدم صبره كله؛ لأنه استعجل ما لم يأتِ أوانه.

ولهذا لم يكتفِ الله أن يأمر نبيَّه بالصبر، بل أتبع ذلك بقوله:

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ ﴾

فكم من قلبٍ أرهقه طول الانتظار، حتى ظنّ أن الفرج قد تأخر، أو أن الدعاء لم يُستجب، أو أن الطريق قد طال أكثر مما يحتمل.

لكن المؤمن يعلم أن الله لا يُجري أقداره على استعجال عباده، وإنما على مقتضى حكمته ورحمته.

إن الثمرة إذا قُطفت قبل أوانها لم يكتمل نضجها، وكذلك كثيرٌ من الأقدار؛ يأتي بها الله في الوقت الذي تكون فيه خيرًا لعبده، لا في الوقت الذي يختاره العبد لنفسه.

ولهذا جاء الأمر بالصبر مقرونًا بالنهي عن الاستعجال؛ لأن الاستعجال قد يُتعب القلب، ويُضعف الثقة، ويُنسي صاحبه ما مضى من حسن ظنه بربه.

فإذا طال الطريق، فلا تجعل طوله سببًا لليأس، ولا تجعل تأخر ما ترجوه دليلًا على أن الله نسيك، فإن ربك لا يُخلف وعده، ولكنه يختار لكل شيءٍ وقته الذي تكتمل فيه حكمته.

فإذا وجدت نفسك تلتفت إلى الساعة أكثر من التفاتك إلى الله، فاعلم أن قلبك يحتاج إلى مزيدٍ من الصبر، وامضِ مطمئنًا... فما أخّره الله بحكمته، لن يقدّمه استعجالك، وما كتبه لك سيأتي في وقته الذي اختاره لك، وهو خير الأوقات.

✦ ❖ ✦سريرة النجاة✦ ❖ ✦

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

ليست الطاعات التي تؤديها في أيام الرخاء أثرًا يزول بانقضاء لحظته، بل قد يجعلها الله سببًا لنجاتك يوم تشتد الكروب، وتضيق بك السبل.

تأمل نبي الله يونس عليه السلام، حين أحاطت به الظلمات، وانقطعت عنه كل الأسباب، أشار القرآن إلى سرٍّ سبق الشدة نفسها، فقال:

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾

لقد كان كثير الذكر، عامر القلب بطاعة الله قبل أن ينزل به البلاء، فلما جاءت المحنة، لم يكن غريبًا عن باب ربه، بل عرف طريقه إليه، فأكرمه الله بالنجاة.

وهكذا المؤمن، لا ينتظر الشدائد حتى يُقبل على الله، بل يجعل بينه وبين ربّه أعمالًا خفية لا يطّلع عليها أحد.

ذكرٌ يلهج به لسانه، واستغفارٌ يخرج من قلبه، وركعاتٌ في جوف الليل، وصدقةٌ لا يعلم بها إلا الله.

تلك الأعمال لا يراها الناس، لكنها لا تغيب عن ربّ الناس، وقد يجعل الله فيها من البركة والنجاة ما لا يخطر على قلب صاحبها.

فإذا نزل البلاء، وجد أثر تلك الطاعات يثبّت قلبه، ويفتح له أبواب الرحمة، ويهيئ له من لطف الله ما لم يكن يحتسب.

فلا تؤجل قربك من الله إلى يوم حاجتك، بل اعمُر أيام الرخاء بطاعته، فإن من عرف الله في السعة، وجد من رحمته ولطفه في الشدة ما يطمئن قلبه ويثبّت خطاه.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦بعينِ الله✦ ❖ ✦

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

ما أكرم هذا الخطاب، وما أعظم ما يسكبه في قلب المؤمن من سكينة، إنها رسالة من الله لكل من أثقله البلاء، وأرهقه الانتظار، وطال عليه الطريق:

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾

ليس لأن الطريق خالٍ من المشقة، ولا لأن الألم يسير، بل لأنك لست وحدك.

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

أي في حفظ الله ورعايته، يعلم ضعفك، ويرى صبرك، ولا يخفى عليه ما يعتصر قلبك من ألم، ولا ما تكابده في سبيل الثبات.

فكيف يضيع من كان في رعاية الله؟ وكيف يُخذل من تولّى الله حفظه؟

ثم يرشدك سبحانه إلى زادٍ يعينك على الصبر:

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

ففي الذكر سكينة، وفي التسبيح قوة، وفي الحمد نور يخفف عن القلب أعباء الطريق، ويملؤه رضا وثباتًا.

كم من همٍّ هدأ بذكر الله، وكم من قلبٍ أرهقه البلاء، فأحياه التسبيح، وردّ إليه الطمأنينة.

فإذا ضاقت بك الأيام، فلا تنسَ أنك بعين الله.

فاصبر، وأكثر من ذكره، وامضِ مطمئنًا؛ فإن من كان في رعاية الله، فلن يضيعه الله، وسيجعل له من رحمته ولطفه ما يطمئن به قلبه، في الدنيا أو يدخره له يوم يلقاه.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦بُشرى الصابرين✦ ❖ ✦

﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾

ما أكرمها من كلمة، وما أوسع ما تحمله من رجاء.

فالله لم يأمر نبيَّه أن يعزّي الصابرين، ولا أن يواسيهم، بل قال:

﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾

وكأن الصبر ليس نهاية الألم، بل بداية موعدٍ مع كرم الله.

ولم يترك القرآن هذه البشارة مجهولة، بل وصف أهلها فقال:

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

ثم كشف ما أعدّه لهم:

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾

أي كرامةٍ أعظم من أن يذكرك الله برحمته، ويغمرك بلطفه، ويهدي قلبك في أشدّ لحظات الابتلاء؟

قد يطول البلاء، وقد يتأخر الفرج، لكن الصابر لا يخسر أبدًا؛ لأن الله وعده، ووعد الله حق.

فإذا نزل بك ما يؤلمك، فلا تنظر إلى حجم البلاء، بل انظر إلى عِظم من وعد الصابرين.

فاصبر لله، واحتسب عنده، وامضِ بقلبٍ مطمئن؛ فإن كل لحظة صبرٍ محفوظة، وكل دمعةٍ محتسبةٍ معلومة، وكل ابتلاءٍ يمرّ بك يقودك إلى رحمة الله إذا لقيته بقلبٍ راضٍ.

وهل بعد بشارةٍ من الله بشارة؟

✦ ❖ ✦محبّةُ الله✦ ❖ ✦

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

ما أعظمها من بشارة، وما أرفعها من منزلة.

فالله لم يعد الصابرين بالأجر وحده، ولم يذكر لهم الثواب فقط، بل أخبر أنه يحبهم.

وأيُّ عطاءٍ يعدل أن يفوز العبد بمحبة ربّه؟

إذا أحبك الله، فقد نلت الخير كلَّه، وإن قلَّ ما في يدك، وإذا رضي عنك، هان عليك ما يفوتك من الدنيا؛ لأن أعظم النِّعم أن تكون قريبًا من ربك، محبوبًا عنده.

ولهذا لم يكن الصبر مجرد احتمالٍ للألم، بل عبادةٌ عظيمة، تُظهر صدق الإيمان، وحسن التوكّل، ورضا القلب بحكمة الله.

فكل لحظةٍ تصبر فيها لله، وكل دمعةٍ تكتمها ابتغاء وجهه، وكل وجعٍ تحتسبه عنده... لا يضيع، بل يقرّبك من منزلةٍ عظيمة، اختص الله بها عباده الصابرين.

فإذا أثقلك البلاء، فتذكّر أن طريق الصبر لا ينتهي بانقضاء المحنة فحسب، بل قد ينتهي إلى محبة الله.

وهل بعد محبة الله منزلة؟ وهل بعد قربه نعمة؟

فهنيئًا لمن صبر لله، واحتسب عنده، حتى فاز بأعظم بشارةٍ في القرآن:

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

أخي القارئ...

لا أريد أن أقول لك: اصبر، ثم أمضي.

فقد قرأت في هذا الفصل من الآيات والمواعظ ما يكفي، وربما كان قلبك يحفظها قبل أن يقرأها هنا.

لكنني أريد أن أقول لك شيئًا آخر...

أعرف أن الإيمان لا يمنع لحظات الضعف، وأن الصابر قد يتعب، وأن المؤمن قد يثقل قلبه البلاء حتى يشعر أن الطريق طال، وأن الأبواب التي كان يرجوها قد أُغلقت كلها.

وأعرف أن هناك لحظاتٍ لا يحتاج فيها الإنسان إلى من يذكّره بالصبر، بقدر ما يحتاج إلى من يفهم ما يدور في قلبه.

ولهذا أقول لك: لا تظن أن مرورك بهذه المشاعر يعني ضعف إيمانك، ما دمت تلجأ بها إلى الله، ولا تجعل الشيطان يقنعك أن كثرة ذنوبك أو شدة بلائك دليلٌ على أن الله تركك.

لقد مرّ المؤمنون قبلك بأيامٍ اشتدّ فيها البلاء حتى قال الله عنهم:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ... حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

ولم يكن ذلك اعتراضًا على الله، وإنما تصويرًا لشدة الابتلاء، حتى جاءت البشارة مباشرة:

﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾.

فإذا مرّت بك تلك اللحظات، فلا تستسلم لها، ولا تجعلها آخر الطريق.

توضأ، وقف بين يدي الله، وأكثر من ذكره، ولو لم تجد في قلبك إلا كلمة: سبحان الله.

فكم من قلبٍ أحياه الذكر بعد أن أنهكه الحزن، وكم من عبدٍ جاءه الفرج بعدما ظن أن الطريق قد انقطع.

كن مع الله في رخائك وشدتك، وثق أن ربًا علّمك الصبر، لن يتركك وحدك في آخر الطريق.

❦ ❦ ❦

الفصل الثالث

نفحات الرضا

* * *

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

"إذا رضي القلب باختيار الله، وجد في كل قضاءٍ سكينة، وفي كل قدرٍ خيرًا."

✦ ❖ ✦الحمدُ لله✦ ❖ ✦

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أولُ آيةٍ في الفاتحة، وأولُ ما يعلّمنا الله أن نقوله له.

وليس الحمد كلماتٍ تُردَّد باللسان فحسب، بل هو حالُ قلبٍ عرف ربَّه، فرضي به، واطمأن إلى حكمته.

فالمؤمن يحمد الله في السراء؛ لأنه يرى نعمه التي لا تُحصى، ويحمده في الضراء؛ لأنه يعلم أن وراء كل قدرٍ حكمة، ووراء كل ابتلاءٍ رحمة، وأن الله لا يختار لعبده المؤمن إلا ما فيه الخير.

وحين يمتلئ القلب بالحمد، تتغيّر نظرته إلى الحياة.

فلا يبقى أسيرًا لما فاته، بل يلتفت إلى ما أُعطي، وينشغل بعدِّ نعم الله عليه، بدل أن ينشغل بعدِّ ما ينقصه.

وهنا يبدأ الرضا.

فالقلب الذي اعتاد الحمد، لا يكثر الشكوى، ولا تُتعبه المقارنات، لأنه يعلم أن لكل عبدٍ قسمًا كتبه الله له، وأن ما عند الله خيرٌ وأبقى.

فأكثر من قول: الحمد لله، لا عند النعم وحدها، بل في كل أحوالك.

فمن عاش حامدًا لربّه، رضي بقضائه، وسكنت نفسه، وامتلأ قلبه غنىً وطمأنينة.

فالحمد... ليس ثناءً باللسان فحسب، بل هو أحد أجمل ثمار الرضا بالله.

✦ ❖ ✦والله يعلم✦ ❖ ✦

﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

آيةٌ تُعلّم القلب أن يُسلِّم لحكمة الله، وألا يجعل نظره القاصر ميزانًا للحكم على الأقدار.

كم من أمرٍ ظننته خيرًا لك، ثم كشفت لك الأيام غير ذلك، وكم من قدرٍ ضاق به صدرك، ثم أدركت بعد زمنٍ أنه كان يحمل لك من الخير ما لم تكن تتصوره.

لكن الرضا لا يقوم على انتظار انكشاف الحكمة دائمًا، بل على الثقة بمن يعلم الحكمة كلها.

فنحن لا نرى إلا ظاهر الأمور، ولا نُدرك إلا جزءًا من المشهد، أما الله سبحانه فيعلم الغيب كلَّه، ويعلم ما يصلح عباده، وما يفسدهم، وما يكون خيرًا لهم في دنياهم وآخرتهم.

ولذلك لا يُبنى الرضا على فهم كل شيء، بل على الثقة بمن يعلم كل شيء.

فإذا تأخر عنك ما تريد، أو انصرف عنك ما أحببت، فلا تظن أن الله حرمك، بل قل: لعلّ الخير فيما اختاره الله.

فالمنع قد يكون عطاءً، والتأخير قد يكون رحمة، والابتلاء قد يكون طريقًا إلى نعمةٍ لم تكن لتنالها بغيره.

فارضَ بحكمة ربك، وأحسن الظن به، فإن اختيار الله لعبده خيرٌ من اختيار العبد لنفسه.

وما دام الله هو العليم الحكيم، فليطمئن قلبك، وليهدأ سؤالك، وليرضَ بما اختاره لك.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦ارضَ باختيارِ الله✦ ❖ ✦

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾

آيةٌ تغرس في القلب الرضا، وتذكّره بأن الله هو العليم الحكيم، يختار بحكمةٍ لا يحيط بها العبد.

كم تعلّق القلب بأمنية، وظنّ أن الخير كل الخير في حصولها، ثم جرت الأقدار على غير ما أراد.

فيحزن، ويتساءل: لماذا لم يتحقق ما تمنيت؟

لكن المؤمن يعلم أن علمه محدود، وأن الله يرى من العواقب ما لا يراه العبد، ويقدّر له ما فيه صلاحه، وإن خفيت عنه الحكمة.

وكم من أمرٍ حزنّا لفقده، ثم كشف لنا الزمن أن الخير كان في عدم حصوله، وأن الله صرفه عنّا رحمةً بنا، لا حرمانًا لنا.

فإذا جاءك القدر بخلاف ما أردت، فلا تظن أن الخير قد فاتك، بل قل: اختار الله، واختياره خير، فهو سبحانه أعلم بما يصلح عباده، وأرحم بهم من أنفسهم.

فارْضَ باختيار الله، وأحسن الظن بحكمته، فما اختاره لك، إنما اختاره بعلمٍ ورحمة، وما عند الله خيرٌ وأبقى.

✦ ❖ ✦اتّزانُ القلب✦ ❖ ✦

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾

آيةٌ تُربّي القلب على الاتّزان، وتعلّمه كيف يمشي في الحياة مطمئنًّا، لا تُثقله الخسارات، ولا تُغريه العطايا.

فكم من قلبٍ أنهكه التعلّق بما فات، فظلّ أسير الحسرة، يُقلّب الذكريات، ويُرهق نفسه بسؤال: "ماذا لو؟"

وكم من نفسٍ أبهجها ما أُعطيت، حتى نسيت أن الفضل كلّه من الله، فاستبدلت الشكر بالزهو، والامتنان بالغفلة.

فجاءت هذه الآية لتضع للقلب ميزانه الدقيق:

لا تأسَ على ما فاتك حتى يكسرك الحزن، ولا تفرح بما أُوتيت حتى يُنسيك المُنعِم.

فكل ما مضى، لم يكن ليبقى إن لم يقدّره الله لك، وكل ما أتاك، ما كان ليصل إليك لولا رحمته.

حين يستقرّ هذا اليقين في القلب، يهدأ اضطرابه، ويخفّ تعلّقه، ويتعامل مع الأقدار بروحٍ مطمئنة.

فإن فاتك شيء... صبرت، وإن أُعطيت شيئًا... شكرت، وهكذا يعيش المؤمن بين جناحين، صبرٌ عند الفقد، وشكرٌ عند العطاء.

وفي هذا التوازن سرُّ الطمأنينة، فلا تُرهق قلبك بحسرةٍ على ما مضى، ولا تُثقله بغرورٍ بما نلت.

فاطمئن... فكل شيءٍ بقدر، وما اختاره الله لك هو عين الخير، وإن خفيت حكمته.

✦ ❖ ✦ارفع بصرك✦ ❖ ✦

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

ليست كل حسرةٍ تبدأ بفقد نعمة، بل قد تبدأ بنظرة، نظرةٍ إلى ما في أيدي الناس، فتتحول المقارنة إلى تعب، ويتسلل إلى القلب شعورٌ بأن غيره أوفر حظًا، فيغفل عما بين يديه من نعمٍ لا تُحصى.

ولهذا نهى الله نبيَّه ﷺ قبل أمته فقال:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾

لأن العين إذا تعلقت بزينة الدنيا، تبعها القلب، وإذا انشغل القلب بما عند الناس، ضعف رضاه بما قسمه الله له، ثم يكشف الله حقيقةً يغفل عنها كثيرون:

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾

فليس كل ما تراه نعمةً خالصة، ولا كل سعةٍ علامةَ رضا، فقد يكون ما أُعطيه غيرك ابتلاءً له، كما أن ما مُنعته أنت رحمةٌ بك، ثم يردُّ القلب إلى الميزان الصحيح:

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

فخيرُ الأرزاق ما باركه الله، وخيرُ العطايا ما قرّبك إليه، وما عند الله أبقى من كل متاعٍ يفنى.

فلا تُتعب قلبك بالمقارنات، ولا تجعل ما تراه عند الناس يحجبك عن نعم الله عليك.

ارفع بصرك عن زينةٍ تزول، وارفع قلبك إلى ربٍّ كريمٍ لا تنفد خزائنه.

فمن رضي بما قسم الله له، عاش غنيَّ القلب، وإن قلَّ ما في يده، ومن تعلّق بما في أيدي الناس، عاش فقير النفس، وإن ملك الدنيا بأسرها.

✦ ❖ ✦ما في قلبك✦ ❖ ✦

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

آيةٌ تكشف سرًّا عظيمًا في طريق القرب من الله.

تأمّل ترتيبها البديع؛ فقد أخبر الله أولًا برضاه عن المؤمنين، ثم بيّن سبب ذلك بقوله:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

فالعبرة عند الله ليست بالمظاهر، ولا بكثرة ما يراه الناس من الأعمال، وإنما بما استقر في القلب من صدقٍ وإخلاص، وثباتٍ ويقين.

فلما علم سبحانه صدق قلوبهم، أنزل عليهم السكينة، فاطمأنت نفوسهم، وثبتت أقدامهم، ثم أكرمهم بالفتح القريب.

وهكذا يربّي الله عباده؛ يبدأ صلاح الطريق من القلب، فإذا صلحت السريرة، أشرق أثرها على الجوارح، ونزلت السكينة، وجاء الفرج في الوقت الذي يقدّره الله.

ولهذا لا يكن همُّك أن تُحسن صورتك أمام الناس، بل أن تُصلح قلبك بين يدي الله، فهو سبحانه يعلم خفايا النفوس، ولا يخفى عليه صدقٌ ولا رياء.

أصلح قلبك، وجدّد نيتك، وأكثر من سؤال الله الثبات والإخلاص، فما كان لله خالصًا باركه، وما نظر الله إلى قلبٍ صادقٍ إلا أكرمه بسكينةٍ تطمئن بها النفس، وتثبت بها على الطريق.

✦ ❖ ✦ليس كل ما نتمنّى✦ ❖ ✦

﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾

سؤالٌ قرآنيّ يهزّ القلب، ويوقظه من التعلّق بما يشتهي ،كم من أمنيةٍ تعلّق بها الإنسان، ورسم لها في خياله أجمل النهايات، وظنّ أن سعادته لن تكتمل إلا بها.

لكن الله، بحكمته ورحمته، قد يحول بين العبد وبين ما يريد، لا حرمانًا له، بل حمايةً ورحمة، ولطفًا لا يدركه في حينه.

فالإنسان ينظر بعين الرغبة، أما الله فيقدّر بعلمٍ كامل، ويرى من العواقب ما لا تراه الأبصار.

قد تلحّ في طلب أمرٍ، ولو نلته في الوقت الذي أردته، لكان سببًا في تعبك أو ضيقك. وقد يتأخر عنك ما تحب، لأن الله يدّخر لك ما هو أصلح لقلبك، وأبقى لأثرك، وأقرب إلى سعادتك الحقيقية.

لذلك لا تجعل رضاك مرهونًا بتحقق أمنياتك، ولا تربط سعادتك بما تتصوره خيرًا لك.

علّق قلبك بالله، وارضَ باختياره، وأيقن أن تدبيره أرحم من تدبيرك لنفسك.

كم من بابٍ تمنّيته فأُغلق، ثم حمدت الله بعد زمنٍ أنه لم يُفتح. وكم من أمرٍ أحزنك فواته، ثم أدركت أن الخير كان في انصرافه عنك.

ثم تأتي الآية التي تُتمّ المعنى:

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾

فإذا كان الأمر كلّه بيده سبحانه، فاطمئنّ إلى اختياره، ولا تُنازع الأقدار بقلبك.

فما اختاره الله لك، وإن خالف أمنيتك اليوم، فهو أرحم بك مما اخترته لنفسك، وأعلم بما يصلح دنياك وآخرتك....

✦ ❖ ✦لِتَرضى✦ ❖ ✦

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾

آيةٌ تختصر غاية المؤمن في كلماتٍ قليلة.

فموسى عليه السلام لم يذكر مصلحةً من مصالح الدنيا، ولم يطلب جاهًا ولا مالًا، وإنما قال: ﴿لِتَرْضَى﴾، فجعل رضا الله أعظم مقصوده.

وهكذا ينبغي أن يكون قلب المؤمن؛ يسأل نفسه قبل كل قولٍ وعمل: هل هذا مما يُرضي الله؟

فإذا أصبح رضا الله غاية قلبك، هانت عليك مشقة الطاعة، وصغرت في عينك مغريات الدنيا، ولم تعد تسأل: ماذا أريد؟ بل أصبحت تسأل: ماذا يحب الله؟

ونحن جميعًا نخطئ ونقصّر، لكن المؤمن لا يُقيم على خطئه؛ فإذا أذنب استغفر، وإذا فتر عاد، وإذا تعثّر نهض من جديد، وجعل وجهته دائمًا إلى الله.

فاجعل رضا الله غاية سعيك، وأخلص نيتك في كل عمل، وردّد بقلبٍ حاضر:

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾

فما أجمل حياةً يكون مقصدها رضا الله، وما أعظم قلبًا لا يطلب من الدنيا شيئًا قبل أن يطلب رضى ربّه.

✦ ❖ ✦عطاءُ الرضا✦ ❖ ✦

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

ما أكرمه من وعد... وما أوسعها من رحمة، إنها كلماتٌ قليلة، لكنها تفتح للقلب أبوابًا واسعة من حسن الظن بالله، وتغرس فيه يقينًا بأن عطاء الله أعظم مما يتصوّره الإنسان.

لقد خاطب الله بها نبيَّه ﷺ بعد ما لقي من الشدة، فكانت بلسمًا لقلبه، ووعدًا كريمًا من ربٍّ لا يُخلف وعده.

وعلى خُطى هذا الوعد يعيش المؤمن مطمئنًّا؛ يعلم أن ربَّه أكرم من أن يخذله، وأرحم من أن يتركه، وأعلم بما يصلحه في دنياه وآخرته.

وقد لا يأتي العطاء دائمًا بالصورة التي نرسمها لأنفسنا، لكنه يأتي بالصورة التي يعلم الله أنها أصلح لنا.

فقد يكون العطاء سكينةً بعد اضطراب، أو هدايةً بعد حيرة، أو قوةً بعد ضعف، أو فرجًا بعد كرب، وقد يكون أعظم العطاء ما يدّخره الله لعباده يوم يلقونه.

ولهذا لا يستعجل المؤمن ربَّه، ولا يسيء الظن بتدبيره، بل ينتظر فضله بقلبٍ راضٍ، ونفسٍ مطمئنة، ويوقن أن الكريم إذا وعد وفّى، وإذا أعطى أدهش.

فأحسن الظن بربك، وعلّق قلبك بكرمه، ولا تجعل نظرك يقف عند ما فاتك، بل انظر إلى سعة عطاء الله، فإن خزائنه لا تنفد، ورحمته لا تنقطع.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

وما أجمل أن يعيش المؤمن على هذا الوعد، مطمئنًّا إلى كرم ربّه، حتى يلقاه بقلبٍ امتلأ رضًا به، وثقةً فيما عنده.

✦ ❖ ✦رضيَ الله عنهم✦ ❖ ✦

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

ما أعظمها من منزلة... وما أكرمها من غاية.

أن يرضى الله عن عبده.

لقد أثنى الله على السابقين من المهاجرين والأنصار، ثم جعل باب هذا الفضل مفتوحًا لكل من اتبعهم بإحسان؛ باتباع كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، والثبات على الحق، والإخلاص في العمل.

ولم يقل سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ فحسب، بل قال: ﴿بِإِحْسَانٍ﴾، ليُعلّمنا أن الاقتداء الحق ليس مجرد انتساب، وإنما صدقٌ في الاتباع، وإخلاصٌ في العمل، وثباتٌ على الطريق.

وأعظم ما يسعى إليه المؤمن في هذه الحياة، ليس كثرة المال، ولا رفعة المنصب، ولا متاع الدنيا الزائل، وإنما أن ينال رضا الله.

فإذا رضي العبد عن ربّه في قضائه، وصبر على بلائه، وشكر نعمه، وسلّم لحكمته... كانت تلك طريقًا إلى أعظم عطاء، أن يرضى الله عنه.

فاجعل غايتك رضا الله، وسر في طريق أهل الإيمان بإخلاصٍ وإحسان، فلعلّك تكون ممن قال الله فيهم:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

وهل بعد رضا الله فوز؟ وهل بعده نعمة؟ ومن رضي الله عنه، فقد نال الخير كلَّه.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦ورِضوانٌ من الله✦ ❖ ✦

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾

بعد أن ذكر الله زينة الدنيا وما تميل إليه النفوس، جاء هذا السؤال العظيم:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾

وكأن الله يلفت قلوب عباده إلى أن كل ما يفتن الإنسان في هذه الحياة، مهما بدا عظيمًا، فإنه يبهت أمام ما أعدّه الله للمتقين، ثم ذكر سبحانه نعيم الجنة؛ الجنات، والأنهار، والخلود، والأزواج المطهرة... لكن حين بلغ أعظم النعيم، ختم بقوله:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾

وكأن جميع تلك النعم، على عظمتها، تبقى دون هذه المنزلة، فما أعظم أن يرضى الله عن عبده.

إن رضوان الله ليس نعمةً تُضاف إلى النعيم، بل هو أعظم النعيم، وأشرف العطايا، وغاية ما تتطلع إليه قلوب المؤمنين.

ولهذا لا ينبغي أن يكون أكبر همّ المؤمن جمع متاع الدنيا، ولا أن يقف طموحه عند نعيم الآخرة وحده، بل أن يجعل غايته رضوان ربّه؛ فإن من نال رضوان الله، فقد نال ما لا يعدله شيء، فاجعل رضا الله مقصدك في كل قولٍ وعمل، واسلك طريق التقوى والإحسان، فما من غايةٍ أسمى، ولا كرامةٍ أعظم، من أن تكون ممن أكرمهم الله برضوانه.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾

وهل بعد رضوان الله غايةٌ تُطلب، أو نعمةٌ يُطمح إليها؟

❦ ❦ ❦

بيني وبينك...

عزيزي القارئ...

في هذه الصفحات لا أحدثك بصفتي كاتبًا، ولا واعظًا يُلقي عليك الكلمات، بل أخًا يجلس إلى جوارك، يعرف شيئًا من ثقل هذه الحياة، ويدرك ما قد يدور في قلبك من أسئلةٍ لا يسمعها أحد.

أعرف ذلك الشعور الذي يتسلل إلى النفس حين تنظر إلى من حولك، فترى من سبقك في مالٍ، أو عملٍ، أو زواجٍ، أو نجاح، فتسأل نفسك في صمت: لماذا وصلوا، وما زلت أنا في أول الطريق؟

لكن اسمح لي أن أذكّرك بشيء قد يغيّر نظرتك كلها:

لا تُقارن بداية طريقك بنهاية طريق غيرك.

فمن تراه اليوم يجني الثمار، لم يبدأ من هنا، بل سبقته سنوات من التعب، والمحاولات، والإخفاقات، والصبر، وربما مرّت عليه أيامٌ ظن فيها أن حصاده لن يأتي أبدًا.

وأنت... ما زلت تزرع.

فكيف تطلب الثمرة قبل أن يكتمل موسمها؟

ومن أكثر ما زاد هذا الشعور في زماننا ما نراه في وسائل التواصل الاجتماعي؛ حيث تُعرض علينا أجمل اللحظات، وأكبر النجاحات، بينما تُخفى خلفها سنوات التعب والانكسار. فيظن الإنسان أن الجميع يتقدم إلا هو، وأن الخير قد كُتب لغيره.

لكن الحقيقة غير ذلك.

فليس كل ما تراه نعمةً خالصة، ولا كل من اتسعت له الدنيا يعيش مطمئنّ القلب. فقد يكون ما أُعطيه ابتلاءً له، كما أن ما مُنعته قد يكون رحمةً بك.

لهذا لا تجعل ميزانك ما في أيدي الناس، بل ما بينك وبين الله.

واعلم أن لكل إنسانٍ طريقًا كتبه الله له، ورزقًا قسمه له، ووقتًا قدّره لكل خيرٍ سيبلغه.

فلا تستعجل، ولا تُرهق قلبك بالمقارنات.

سر في طريقك، وأحسن السعي، وارضَ بتدبير ربك، فما عند الله لا يأتي متأخرًا، وإنما يأتي في الوقت الذي يعلم سبحانه أنه خيرٌ لك.

واعلم أن الدنيا لم تُخلق لتكون دار راحةٍ كاملة، ولذلك لا تبحث فيها عن حياةٍ بلا تعب، بل ابحث عن قلبٍ يرضى بالله، فإن من رضي بربه، هانت عليه تقلّبات الطريق، وأصبح يرى في كل قدرٍ حكمة، وفي كل تأخيرٍ لطفًا، وفي كل منعٍ بابًا إلى خيرٍ لا يراه بعد.

الفصل الرابع

نفحات التوكل

***

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾

"إذا فوّض القلب أمره إلى الله، مضى في طريقه مطمئنًا، وبقيت النتائج في يد من لا يُضيّع عباده."

✦ ❖ ✦ربُّ الأسباب✦ ❖ ✦

﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾

آيةٌ تُعيد القلب إلى الحقيقة التي كثيرًا ما تغيب عنه... فالإنسان مأمورٌ أن يأخذ بالأسباب، لكن قلبه لا ينبغي أن يتعلّق بها، لأن خالق الأسباب، ومدبّرها، ومُجريها، هو الله وحده.

ولهذا يلفت الله أنظارنا في سورة الواقعة إلى ما نراه كل يوم، حتى لا نغفل عن صاحبه.

يسألنا سبحانه: أأنتم تخلقون؟ أأنتم تُنبتون الزرع؟ أأنتم تُنزلون الماء؟ أأنتم تُوقدون النار؟

وكأن الجواب يتردّد في القلب مع كل سؤال: بل الله.

فإذا كان كل شيءٍ بيده، فكيف يتعلّق القلب بغيره؟

إن التوكّل ليس أن تترك العمل، ولا أن تُهمل الأسباب، بل أن تعمل بكل ما تستطيع، ثم تعلم أن الأسباب لا تُثمر بذاتها، وإنما بأمر الله وإذنه.

ولهذا كان المؤمن يسعى بجد، ويخطّط بحكمة، ويبذل وسعه، لكن قلبه يبقى معلّقًا برب الأسباب، لا بالأسباب نفسها.

وأما ما يُتداول عن فضل سورة الواقعة في دفع الفقر، فالأولى بالمؤمن أن يتدبّر ما فيها من المعاني العظيمة، التي تُرسّخ اليقين، وتُعلّم القلب أن الخلق، والرزق، والتدبير، كلها بيد الله، من غير أن ينسب إليها فضائل لم يثبت بها دليلٌ صحيح.

فإذا ضاقت بك الأسباب، فلا تيأس، وإذا كثرت، فلا تغتر.

فمن خلق الأسباب، يملك أن يُجريها، ويوقفها، ويفتح لك من فضله ورحمته ما لا يخطر لك على بال.

✦ ❖ ✦الرزق بحكمة✦ ❖ ✦

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

ما أعظمها من آيةٍ تملأ القلب طمأنينة... فرزقك ليس بيد مدير، ولا وظيفة، ولا تجارة، ولا أحدٍ من الخلق، وإنما بيد الرزّاق سبحانه.

فخذ بالأسباب، واسعَ في طلب رزقك، وأتقن عملك، لكن لا تجعل قلبك معلّقًا بالأسباب، بل بربِّ الأسباب.

فكم من بابٍ أُغلق، فظنّ صاحبه أن الرزق قد انقطع، ثم فتح الله له أبوابًا لم تكن تخطر له على بال.

وكم من أمرٍ ظننته سبب نجاتك، فلما صرفه الله عنك، أبدلك خيرًا منه في الوقت الذي اختاره لك.

والرزق ليس مالًا فحسب؛ بل قد يكون سكينةً تملأ قلبك، أو علمًا ينفعك، أو صحةً تحفظك، أو أهلًا يؤنسونك، أو هدايةً تقرّبك من ربك.

فالله يرزق كل عبدٍ بما يعلم أنه أصلح له، ويعطي بحكمة، ويمنع بحكمة، ولا يقدّر لعباده إلا ما وسعته رحمته، وأحاط به علمه.

فإذا ضاق عليك الرزق، فلا تيأس، وإذا تأخر عنك ما تتمنّى، فلا تظن أن الله نسيك.

ثق بربك، وأحسن الظن به، واعلم أن ما كتبه الله لك سيأتيك،

وما لم يكتبه، فلن تناله ولو اجتمعت له أسباب الدنيا كلها.

فاطمئن... فما دام الرزّاق هو الله، وذو القوة هو الله، وذو الفضل هو الله... فلا يحملنَّ قلبك همَّ رزقٍ تكفّل الله به.

✦ ❖ ✦من حيث لا تحتسب✦ ❖ ✦

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

آيةٌ تُوسّع أفق القلب، وتُعلّمه أن فضل الله لا تحدّه الأسباب، ولا تقف دونه حسابات البشر.

فكم من بابٍ أُغلق، ثم فتح الله بابًا خيرًا منه. وكم من أمرٍ ظنّه الإنسان بعيد المنال، فإذا الله ييسّره من طريقٍ لم يخطر له على بال.

ورزق الله ليس مالًا فحسب، بل قد يكون صحةً، أو عافيةً، أو سكينةً، أو علمًا نافعًا، أو ذريةً صالحة، أو توفيقًا يغيّر مجرى الحياة.

ولهذا لا ييأس المؤمن إذا ضاقت به الأسباب، ولا يظن أن رزقه محصورٌ فيما يراه أمامه؛ فخزائن الله لا تنفد، وعطاؤه لا يقف عند سببٍ ولا طريق.

ومع ذلك، فإن التوكّل لا يعني ترك السعي، بل يعني أن تعمل بما تستطيع، ثم تُسلّم قلبك إلى الله، عالمًا أن البركة، والتيسير، والفتح... كلها بيده سبحانه.

فلا تجعل أملك معلّقًا بسببٍ واحد، ولا تظن أن انغلاق بابٍ يعني انقطاع الرزق؛ فإن الذي وعدك أن يرزقك، وعدك أيضًا أن يأتيك رزقه من حيث لا تحتسب.

فإذا وثق القلب بربّه، لم يعد يخاف قلّة الحيلة، لأنه يعلم أن لله من أبواب الفضل ما لا يخطر على قلب بشر.

✦ ❖ ✦هو مولانا✦ ❖ ✦

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ۚ هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

آيةٌ تزرع في القلب طمأنينةً لا تزعزعها تقلّبات الحياة، وتعلّمه أن المؤمن لا يعيش أسير الخوف؛ لأنه يعلم أن أمره كلّه بيد الله.

﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

فما قدّره الله لك لن يخطئك، وما لم يكتبه لك فلن تبلغه، ولو اجتمعت له أسباب الدنيا كلها. وليس في ذلك دعوةٌ إلى ترك السعي، بل إلى أن يأخذ المؤمن بالأسباب، ثم يطمئن إلى حكمة من بيده تدبيرها.

ثم تأتي الكلمة التي تُسكّن القلب كلّه:

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾.

أي هو ولينا، وحافظنا، وناصرنا، ومدبّر أمرنا. فإذا كان مولاك هو الله، فممَّ تخاف؟ وكيف يقلق قلبٌ يعلم أن الذي يقدّر له الأقدار هو أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين؟

ولهذا ختم الله الآية بقوله:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

فالتوكّل ثمرة هذا اليقين؛ أن تبذل ما تستطيع، ثم تُفوّض أمرك إلى مولاك، راضيًا بحكمه، مطمئنًا إلى تدبيره، واثقًا أن اختياره خيرٌ من اختيارك لنفسك.

فإذا أقلقك المستقبل، أو أثقلتك الأيام، فاذكر هذه الآية، وردّدها بقلبٍ حاضر: هو مولانا.

فمن كان الله مولاه، لم يكن في هذه الدنيا وحيدًا، ولم يضيعه ربّه أبدًا.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦إنه على كل شيءٍ قدير✦ ❖ ✦

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

آيةٌ تُوقظ القلب من يأسه، وتفتح له باب الرجاء، وتذكّره أن قدرة الله لا يحدّها سبب، ولا يقف في وجهها مستحيل.

تأمّل الأرض حين تجفّ، ويغيب عنها الماء، فتبدو وكأن الحياة قد فارقتها. ثم ينزل عليها الغيث، فإذا بها تهتزّ، وتخضرّ، وتنبض بالحياة من جديد.

فالذي أحيا الأرض بعد موتها، قادرٌ أن يُحيي في قلبك أملًا ظننت أنه انطفأ، وأن يبدّل ضعفك قوة، وحزنك سكينة، وضيقك فرجًا، في الوقت الذي يشاؤه وبالطريقة التي يختارها.

ولهذا لا تجعل قلبك أسيرًا لما تراه من الأسباب؛ فقد تغيب الأسباب كلها، وتبقى قدرة الله لا يغيب عنها شيء.

قد يتأخر الفرج، وقد يطول الانتظار، لكن المؤمن لا ييأس؛ لأنه يعلم أن الأمر ليس بيد الأسباب، وإنما بيد من خلقها، وهو سبحانه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

فإذا ضاقت بك الأيام، أو خُيّل إليك أن الأبواب قد أُغلقت، فلا تنظر إلى عجزك، وانظر إلى قدرة ربك.

فمن أيقن أن الله على كل شيءٍ قدير، هان عليه انتظار الفرج، وسهل عليه أن يتوكّل على ربّه، لأن قلبه تعلّق بمن لا يعجزه شيء.

✦ ❖ ✦التوكّل الحق✦ ❖ ✦

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

آيةٌ تُعلّم القلب أن التوكّل لا يقوم على مجرد الأمنيات، بل على معرفةٍ صادقةٍ بالله.

فالتوكّل ليس تركًا للأسباب، ولا انتظارًا للنتائج دون عمل، بل أن تبذل ما تستطيع، وتجتهد فيما كُلِّفت به، ثم تُفوّض أمرك إلى الله، موقنًا أن من يتولى تدبيره هو خير من يدبّر لنفسه.

ولهذا ختم الله الآية باسميه العظيمين:

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فهو العزيز الذي لا يعجزه شيء، ولا يغلبه أمر، وهو الحكيم الذي يضع كل شيءٍ في موضعه، ويختار لعباده ما يصلحهم، وإن خفيت عليهم حكمته.

فقد ترى بابًا يُغلق، أو أمرًا يتأخر، أو أمنيةً لا تتحقق كما أردت، لكن قلب المتوكّل لا يضطرب؛ لأنه يعلم أن الله لا يقضي إلا بعزةٍ لا تُغلب، وحكمةٍ لا تخطئ.

خذ بالأسباب، وأخلص في سعيك، ثم علّق قلبك بالله وحده، ولا تجعل ثقتك بما في يدك، بل بمن بيده كل شيء.

فمن توكّل على الله حقَّ التوكّل، عاش مطمئنًّا، لا لأن الطريق يخلو من البلاء، بل لأن ربَّه لا يتركه في الطريق.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦صفات المؤمنين✦ ❖ ✦

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

آيةٌ ترسم ملامح المؤمن الصادق، وتكشف أن التوكّل ليس صفةً منفصلة، بل ثمرةُ قلبٍ امتلأ بالإيمان.

﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

فإذا ذُكر الله، خشعت قلوبهم، وعظّمت ربها، واستحيَت أن تعصيه، واشتاقت إلى طاعته.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

فالقرآن لا يمرّ على قلوبهم مرورًا عابرًا، بل يحييها، ويزيدها يقينًا، ويقرّبها من ربها.

ثم جاءت الثمرة:

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

فكلما ازداد القلب معرفةً بالله، ازداد اعتمادًا عليه. فيأخذ المؤمن بالأسباب، ويبذل وسعه، لكن قلبه لا يتعلق إلا بالله؛ لأنه يعلم أن النفع والضر، والعطاء والمنع، كلها بيده سبحانه.

فإذا أردت أن تعرف حقيقة توكّلك، فانظر أولًا إلى قلبك.

هل يوجل إذا ذُكر الله؟

وهل يزداد إيمانًا إذا سمع كلامه؟

فإذا صلح القلب، جاء التوكّل من تلقاء نفسه؛ لأن القلب إذا عرف ربَّه، لم يجد أحدًا أولى بالاعتماد عليه منه.

✦ ❖ ✦اعزم وتوكل✦ ❖ ✦

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

ما أجمل ترتيب الآية...

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾.

بعد أن تفكّر، وتستشير، وتأخذ بالأسباب، وتبذل ما تستطيع...

ثم:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

فلا تجعل قلبك أسيرًا للخوف من النتائج، ولا تُرهق نفسك بكثرة الاحتمالات بعد أن بذلت وسعك، بل سلّم أمرك لمن بيده الأمر كلّه.

ثم تأتي البشارة العظيمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

فالتوكّل ليس تواكلًا، ولا تركًا للعمل، بل أن تعمل بما تستطيع، ثم تطمئن؛ لأنك سلّمت النتيجة لمن هو أعلم بك، وأرحم بك، وأحكم في تدبير أمرك.

اعزم، واسْعَ، واستشر، ثم توكّل.

فإن جاءت النتيجة كما تمنّيت، فاحمد الله، وإن جاءت على غير ما أردت، فثق بحكمة الله.

وفي الحالين، أنت تحت تدبير ربٍّ كريم، يحب من صدق في توكّله عليه.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦حَسْبِيَ اللَّهُ✦ ❖ ✦

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

ما أعظمها من آيةٍ حين تضيق بك الدنيا، وتتراجع الأسباب، وتشعر أن ما كنت تعتمد عليه لم يعد يكفيك.

حينها يقول المؤمن:

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾.

أي: الله يكفيني. يكفيني حين أعجز، ويكفيني حين لا أعرف الطريق، ويكفيني حين لا أملك من أمري إلا الدعاء.

هو يعلم حالي، ويرى ضعفي، ويعلم ما لا أعلمه عن نفسي وعن طريقي، ولا يضيع من جعل اعتماده عليه.

ثم يقول:

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فلا معبود بحقٍّ سواه، ولا ملجأ أعظم منه، ولا قلبٌ ينبغي أن يتعلّق به العبد كما يتعلّق بربّه.

ثم:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

فلا يعني التوكّل أن تتوقف عن السعي، ولا أن تترك الأسباب، بل أن تأخذ بها دون أن تجعل قلبك أسيرًا لها.

تعمل... لكنك تعلم أن التوفيق بيده.

وتسعى... لكنك تعلم أن النتائج بيده.

وتخطط... لكنك تعلم أن تدبيره أعلم وأرحم.

ثم يختمها بقوله:

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

فإذا كان الله ربَّ العرش العظيم، ومالك الملك، ومدبّر الأمر كله، فلا تجعل قلبك يظن أن همّك أكبر من قدرته، أو أن حاجتك أعظم من رحمته.

قد تتبدّل الظروف، وقد تتعطّل الأسباب، وقد لا تعرف كيف ستصل إلى ما ترجوه... لكن يكفيك أن تعرف إلى من تلجأ.

فإذا ضاقت بك الدنيا، فلا تجعل أول ما تبحث عنه مخرجًا من الناس، بل اجعل قلبك يتوجه إلى الله، وقلها كما قال المؤمن الموقن:

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

فمن كان الله حسبه، فقد كفاه الله ما أهمّه.

ومن توكّل عليه، فقد أسند أمره إلى من لا يعجزه شيء.

✦ ❖ ✦إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ✦ ❖ ✦

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

آيةٌ تجمع بين حقيقةٍ عظيمة، وطريقٍ عظيم.

أما الحقيقة:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

فالله وحده يملك الأمر كلّه، ويعلم ما خفي عنك، ويرى ما لا تراه، ويعلم أين يكون الخير، وأين يكون الضرر.

وأما الطريق:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

فإذا كان الحكم لله، والأمر بيده، والتدبير له... فلا معنى لأن يحمل قلبك ما لا يملك.

اسعَ، واعمل، واستشر، وخذ بالأسباب، لكن لا تتوهّم أنك تملك النتيجة وحدك.

ثم يقول سبحانه:

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وكأنها دعوةٌ صريحة:

إذا أردتم التوكّل، فليكن على الله.

لا على قوة الأسباب وحدها، ولا على الناس، ولا على الظروف، ولا على ما تظنونه مضمونًا.

فالأسباب قد تتغير، والناس قد يتبدلون، والظروف قد تنقلب... لكن الله لا يتغير، ولا يخرج شيءٌ عن حكمه.

قد لا تعرف كيف ستجري الأمور، وقد لا تملك أن تتحكم في كل ما ينتظرك، لكن يكفيك أن تعرف من بيده الحكم.

فاسعَ فيما تستطيع، ثم اطمئن إلى من لا يعجزه شيء.

فما دام الحكم لله، والتوكل عليه، والأمر كله بيده... فلا تحمل قلبك همَّ ما لم يُطلب منك حمله.

عليك بالسعي، وعليه التوكّل.

عليك أن تبذل ما تستطيع، وعليه أن تدبّر ما لا تستطيع.

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

✦ ❖ ✦وما توفيقي إلا بالله✦ ❖ ✦

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

آيةٌ تختصر طريق التوفيق كلّه...

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

فكل خطوةٍ تسير بها في الخير، وكل طاعةٍ ييسّرها الله لك، وكل معصيةٍ يصرفك عنها، وكل بابٍ يفتح لك في الوقت المناسب...

فليس ذلك بقدرتك وحدها.

بل هو من توفيق الله.

فلا تغترّ بقدرتك، ولا تنسب الفضل إلى نفسك وحدها، بل احمد الله دائمًا، واعلم أن العبد لا يستغني عن توفيق ربه لحظةً واحدة.

ثم يقول:

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

فأبذل ما أستطيع، وآخذ بالأسباب، وأسعى فيما أقدر عليه... لكن قلبي لا يعتمد إلا على الله.

فقد أملك القدرة على السعي، لكنني لا أملك أن أضمن النتائج.

وقد أعرف الطريق الذي أريد أن أسلكه، لكنني لا أعرف أين يكون الخير.

ولهذا أتوكل على من يعلم، وأنا لا أعلم، ويقدر، وأنا لا أقدر.

ثم:

﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

فإذا أخطأت رجعت، وإذا قصّرت استغفرت، وإذا ضاقت بي الدنيا لجأت إليه، وإذا ابتعدت عنه أعادني إليه فضله.

فالتوفيق من الله، والاعتماد على الله، والرجوع إلى الله.

ومن جمع هذه المعاني، سعى دون غرور، ونجح دون كِبر، وتعثّر دون يأس، وعاد إلى الله كلما ابتعد.

فاسعَ، واعمل، وخذ بالأسباب، لكن لا تنسَ أن كل خطوةٍ موفقةٍ في طريقك، ما كانت لتكون لولا فضل الله عليك.

وقل بقلبٍ صادق:

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

✦ ❖ ✦نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير✦ ❖ ✦

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

آيةٌ تملأ القلب ثقةً وسكينة...

قد يتخلّى عنك الناس، وقد تخيب ظنونك فيمن ظننته سندًا، وقد تجد نفسك في لحظةٍ لا تعرف إلى من تلجأ.

لكن المؤمن لا يكون بلا سند. لأن الله مولاه.

﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾.

وما أعظم أن يكون الله مولاك...

فإذا ضاقت بك السبل، وجدت بابًا لا يُغلق.

وإذا عجزت عن تدبير أمرك، فقد أسندت أمرك إلى من لا يعجزه شيء.

وإذا لم تعرف أين يكون الخير، فحسبك أن مولاك يعلم.

ثم يقول سبحانه:

﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

فهو خير من يُعتمد عليه، وخير من يُلجأ إليه، وخير من يتولى أمر عبده، وينصره بما يشاء، وفي الوقت الذي يشاء.

وقد يتأخر النصر، وقد تأتي الأمور على غير ما تمنّيت، لكن ذلك لا يعني أن الله تركك.

فقد يكون النصر في فتح بابٍ لم تره، أو صرف بلاءٍ لم تعلم أنه كان ينتظرك، أو تثبيت قلبك حتى تمرّ من الشدة دون أن تنكسر.

فالله لا يترك عبده، حتى حين لا يفهم عبده ما يجري.

إذا شعرت بالوحدة، فتذكّر أن الله مولاك.

وإذا أثقلتك الهموم، فالجأ إليه.

وإذا خفت من المستقبل، فثق بمن يتولى أمرك.

فما دام الله مولاك، فأنت لست متروكًا.

وما دام نصيرك، فلا تجعل تأخر الفرج دليلًا على غياب النصر.

فقد يتغير الطريق، وقد يتأخر الموعد، لكن الله لا يترك من توكّل عليه.

﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

✦ ❖ ✦إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ✦ ❖ ✦

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

ما أعظمها من منزلة... أن يحبك الله.

ليس التوكّل أن تترك العمل، ولا أن تتخلى عن الأسباب، ولا أن تنتظر ما تريد دون سعي.

بل أن تعمل، وتسعى، وتبذل ما تستطيع... ثم لا تجعل قلبك أسيرًا لما لا تملك.

تأخذ بالأسباب، لكن لا تعبدها.

تخطط، لكن لا تتعلق بخطتك.

تسعى، لكن لا تجعل سعادتك معلّقةً بالنتيجة.

تقول:

يا رب، بذلت ما أستطيع، وأمري إليك.

ثم تمضي.

لا لأنك تعرف كيف ستجري الأمور، بل لأنك تعرف من بيده الأمر كله.

وهنا تأتي البشارة العظيمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

فالتوكّل ليس مجرد وسيلةٍ تصل بها إلى ما تريد، بل منزلةٌ يحب الله أهلها.

قد لا تحصل على كل ما تمنّيت، وقد لا يأتيك الطريق كما خططت له، لكن يكفيك أنك لم تسند قلبك إلى نفسك وحدها، ولم تجعل الأسباب ربًّا من دون الله، بل سعيت بيدك، واعتمدت بقلبك على ربك.

فاعمل، واسعَ، وخذ بالأسباب، ثم اترك قلبك عند الله.

فإن جاءت الأمور كما تمنّيت، فاحمده.

وإن جاءت على غير ما أردت، فاستعن به.

وفي الحالين، لا تكن وحدك... فأنت مع ربٍّ توكّلت عليه، وربٍّ وعدك، وربٍّ يحبك إذا صدقت في توكّلك عليه.

وهل بعد محبة الله منزلة؟

فيا هنيئًا لمن سعى ببدنه، واطمأن بقلبه، وفوّض أمره إلى الله...

حتى كان من الذين قال الله فيهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

بيني وبينك...

بيني وبينك... أيها القارئ

أريد أن أخبرك بشيءٍ قد لا يعرفه إلا من عاشه.

من أصعب المشاعر أن تستيقظ كل يوم، وتبحث عن عمل، وتطرق الأبواب، وترسل طلبات التوظيف، ثم تعود إلى بيتك كما خرجت.

ليس لأنك كسول...

بل لأن الأبواب لم تُفتح بعد.

ثم تبدأ تسمع الكلمات.

هذا يلومك.

وذاك يلمزك.

وأحيانًا أقرب الناس إليك يظنون أنك لا تسعى بما يكفي، بينما لا يعلمون كم مرةً حاولت، وكم مرةً رُفضت، وكم مرةً دعوت الله أن يفتح لك بابًا.

وأعرف...

أن هذا الشعور مؤلم.

مؤلم أن ترى غيرك يتقدّم، بينما أنت ما زلت تنتظر.

لكن لا تجعل انتظارك يجعلك تظن أنك عديم الفائدة.

فليس تأخر الرزق دليلًا على قلة قيمتك.

وليس تأخر الوظيفة دليلًا على أن الله نسيك.

إنما لكل رزقٍ موعد، ولكل بابٍ وقت، والله أعلم بما يصلح عباده.

ولهذا لا تُقارن نفسك بأحد.

فأنت لا تعرف الطريق الذي سار فيه، ولا الابتلاء الذي ينتظره، كما أنه لا يعرف ما ادّخره الله لك.

واعلم...

أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

فاهدأ...

واسعَ كل يوم، وخذ بالأسباب، ثم اترك ما لا تملك لمن بيده كل شيء.

فالرزق لا يأتي في الوقت الذي نريده دائمًا...

بل في الوقت الذي يختاره الله، وهو خير المختارين.

الفصل الخامس

نفحات الاحسان

***

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾

"إذا أحسن القلبُ لله، فلا يُضيعُ اللهُ عمله."

✦ ❖ ✦كما أحسن الله إليك✦ ❖ ✦

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

آيةٌ تجمع للمؤمن طريق الحياة كله...

فلتكن الآخرة غايتك، واجعل ما وهبك الله من مالٍ، أو علمٍ، أو وقتٍ، أو قوةٍ وسيلةً إلى رضاه، لا غايةً تشغلك عنه.

وفي الوقت نفسه، لا تنسَ نصيبك من الدنيا؛ فالإسلام لا يدعو إلى تركها، وإنما يدعوك إلى عمارتها بالخير، وأن تعيشها بما يرضي الله، من غير إسرافٍ ولا غفلة.

ثم تأتي الوصية التي تختصر معنى الإحسان كله:

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

فكما وسعك الله برحمته، وساق إليك نعمه، وستر تقصيرك، وافتح لك أبواب فضله، فليكن لك نصيبٌ من الإحسان إلى عباده.

أحسن بكلمةٍ طيبة، وبابتسامةٍ صادقة، وبعفوٍ عند المقدرة، وبمساعدةٍ لمن يحتاج، فإن أثر الإحسان يبقى، وإن نسيه الناس.

فإذا أردت أن تشكر نعمة الله حقَّ الشكر، فلا تكتفِ بحمد اللسان، بل اجعل نعمته تمتد إلى غيرك، وأحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك.

✦ ❖ ✦أحسنُ عملًا✦ ❖ ✦

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

تأمل هذه الآية جيدًا... لم يقل الله: "أكثركم عملًا"، بل قال:

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

فليس الميزان عند الله كثرة الأعمال، وإنما حسنها.

قد يُكثر الإنسان من الطاعات، لكن يفسدها الرياء، أو يُفرّط في الإخلاص، أو يبتعد بها عن هدي رسول الله ﷺ، فلا تكون منزلتها عند الله كما يظن.

وقد يعمل آخر عملًا يسيرًا، لكنه أخلص فيه لله، وأدّاه كما يحب الله، فيكون أعظم أجرًا وأرفع قدرًا.

ولهذا كان السلف يقولون: إن العمل لا يُقبل حتى يكون خالصًا لله، وصوابًا على سنة رسول الله ﷺ.

فلا تجعل همَّك أن تُكثر من الأعمال، بل أن تُحسنها.

أحسن صلاتك، وأحسن تلاوتك، وأحسن عملك، وأحسن خُلُقك، وأحسن معاملتك مع الناس.

واسأل نفسك دائمًا:

هل هذا العمل يرضي الله؟

فهذا هو الامتحان الحقيقي في الدنيا؛ ليس من يعمل أكثر، بل من يُحسن العمل أكثر.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦أحسن لله✦ ❖ ✦

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

آيةٌ تجمع بين خُلُقين عظيمين؛ الصبر والإحسان.

فليس الإحسان طريقًا سهلًا دائمًا، بل قد يحتاج إلى صبرٍ طويل.

تصبر على طاعة الله، وتصبر عن معصيته، وتصبر على أقداره، وتصبر على أذى الناس، ثم تواصل الإحسان، ولا تسمح للإساءة أن تُطفئ الخير الذي في قلبك.

وكم من إنسانٍ أحسن فلم يجد شكرًا، وأعطى فلم يُذكر، وبذل وقته وجهده، ثم انصرف الناس وكأن شيئًا لم يكن.

لكن المؤمن لا يجعل ثواب إحسانه عند الناس، لأن ما عند الناس يزول، أما ما عند الله فلا يضيع.

ولهذا جاءت البشارة التي تُطمئن كل قلبٍ مُحسن:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فلا تضيع عنده كلمةٌ طيبة، ولا معروفٌ خفي، ولا ابتسامةٌ أدخلت سرورًا على قلبٍ حزين، ولا تعبٌ بذلته ابتغاء مرضاته.

وربما لا ترى أثر إحسانك اليوم، لكن الله يدّخره لك،

أو يبارك لك بسببه في حياتك، أو يجعله نورًا تلقاه يوم تقف بين يديه.

فأحسن، واصبر، ولا تلتفت إلى قلة التقدير، فإذا كان الكريم سبحانه هو الذي يحفظ أجرك، فأيُّ أمانٍ أعظم من هذا؟

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

✦ ❖ ✦جزاءُ الإحسان ✦ ❖ ✦

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾

ما أكرمه من وعد... وما أوسعها من بشارة. فكل إحسانٍ تُقدّمه، وكل خيرٍ تزرعه، وكل معروفٍ تصنعه، لا يضيع عند الله.

قد لا تجد من يشكرك، وقد يُقابل إحسانك بالجفاء، أو يُنسى ما بذلته مع مرور الأيام، لكن الله لا ينسى عملًا أُريد به وجهه.

ولهذا كرّر الإحسان في حياتك، ولا تربطه بردود أفعال الناس، فالمؤمن لا يُحسن لأن الناس يستحقون، بل لأنه يرجو ما عند الله.

ثم يأتي الوعد الذي يطمئن القلب:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.

فمن أحسن إلى ربه بالطاعة، وأحسن إلى والديه بالبر، وأحسن إلى الناس بالخلق الحسن، أحسن الله إليه في دنياه، وادّخر له من جزائه في آخرته ما تقرّ به عينه.

فأحسن، ولا تنتظر الجزاء من الخلق، فإن الكريم إذا تولّى مكافأتك، جاءك من فضله ما يفوق كل ما كنت ترجوه.

✦ ❖ ✦الحسنى وزيادة✦ ❖ ✦

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

ما أعظمها من بشارة، وما أكرمه من وعد...

لم يقل الله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ فحسب، بل زادهم فضلًا وإكرامًا فقال:

﴿وَزِيَادَةٌ﴾.

فالله لا يضيع إحسان المحسنين، ولا يجازيهم بعدله وحده، بل يتفضل عليهم بواسع كرمه، ويزيدهم من عطائه ما لا يخطر على قلب بشر.

وقد فسر كثيرٌ من أهل العلم هذه الزيادة بأنها أعظم نعيم أهل الجنة؛ وهو النظر إلى وجه الله الكريم، فنعيمٌ لا يدانيه نعيم، وكرامةٌ لا تعلوها كرامة.

فإذا كان هذا جزاء الإحسان، فكيف يزهد المؤمن في عملٍ يقرّبه إلى هذا الفضل العظيم؟

فأحسن ما استطعت، وأخلص نيتك لله، ولا تنتظر جزاءك من الناس؛ فإن الكريم إذا وعد، وفّى، وإذا أعطى، أعطى فوق ما يتصور العبد.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

فهنيئًا لمن جعل الإحسان طريقه، فإن موعده مع الله ليس الحسنى فحسب... بل زيادةٌ من فضل أكرم الأكرمين.

✦ ❖ ✦أجرُ المحسن✦ ❖ ✦

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾

ما أكرمه من وعد...

قد تُحسن فلا تجد من يشكرك، وتبذل المعروف فيُقابَل بالجحود، وتجتهد في عملك فلا يقدِّر الناس تعبك كما كنت ترجو.

لكن المؤمن لا يجعل ميزان إحسانه في أيدي الناس، لأنه يعلم أن الله لا ينسى عملًا أُريد به وجهه.

فكل كلمةٍ طيبة، وكل يدٍ امتدت بالخير، وكل تعبٍ احتسبته عند الله، محفوظٌ عند الكريم سبحانه، لا يضيع منه شيء.

ولهذا لا تجعل غايتك ثناء الناس، ولا تربط إحسانك بردود أفعالهم، بل اجعل همَّك رضا الله؛ فما عنده أبقى، وجزاؤه أوفى.

فأحسن ما استطعت، وامضِ في طريق الخير مطمئنًّا، فإن الذي حفظ عملك هو الله، والذي وعدك بالأجر هو الله، ووعده لا يتخلّف.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

✦ ❖ ✦محبةُ الله للمحسنين✦ ❖ ✦

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

ما أعظمها من وصية، وما أجلَّها من غاية...

﴿وَأَحْسِنُوا﴾، كلمةٌ تجمع حياة المؤمن كلها.

أحسن في عبادتك، وأحسن إلى والديك، وأحسن في عملك، وأحسن في دراستك، وأحسن إلى أهلك وجيرانك، وأحسن إلى الناس، ما استطعت.

ولا تجعل إحسانك انتظارًا لثناء الناس أو مكافأتهم؛ فكم من معروفٍ قوبل بالجحود، وكم من إحسانٍ لم يجد شكرًا. أما المؤمن، فيجعل أجره عند الله، لأنه يعلم أن ما عند الله أبقى، وأن الكريم لا يضيع عمل المحسنين.

اجعل إحسانك خالصًا لله، وابتغِ به وجهه الكريم، فإن الناس قد ينسون، أما الله فلا ينسى.

ويكفي المحسن شرفًا أن الله قال فيه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فأيُّ منزلةٍ أعظم من أن تكون محبوبًا عند رب العالمين؟

✦ ❖ ✦الكلمةُ الطيبة✦ ❖ ✦

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

ما أعظم هذا الأمر، وما أيسره على اللسان، وما أثقله في الميزان...

لقد أمرنا الله أن يكون كلامنا حسنًا، ولينًا، وطيبًا؛ يداوي القلوب ولا يجرحها، ويجمع الناس ولا يفرّقهم.

فالكلمة ليست حروفًا تُقال ثم تنتهي، بل قد تبقى في القلب أعوامًا؛ فقد ترفع همةً أو تُحيي أملًا، وقد تكسر نفسًا أو تترك جرحًا لا يندمل.

وكم من إنسانٍ تغيّر بسبب كلمةٍ صادقة، وكم من آخر أثقلته كلمةٌ قاسية حتى بات يحمل أثرها في قلبه طويلًا.

ولهذا كان المؤمن يزن كلامه قبل أن ينطق به، ويختار أطيب الألفاظ، وألين العبارات، لأنه يعلم أن الكلمة مسؤولية، وأن أثرها قد يبقى بعد أن ينساها قائلها.

فأحسن إلى الناس بلسانك كما تُحسن إليهم بعملك، ولا تستهن بكلمةٍ طيبة؛ فلعلها تجبر قلبًا مكسورًا، أو تفتح باب خيرٍ، أو تكون سببًا في هداية إنسان.

ولهذا أمرنا الله أمرًا جامعًا، فقال:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

فما أجمل أن يكون لسانك بابًا للرحمة، وأن يكون أثرك في القلوب كلمةً طيبةً لا تُنسى.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦قلِ التي هي أحسن✦ ❖ ✦

﴿وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

توجيهٌ ربانيٌّ يعلّمنا أن الكلمة ليست حروفًا تُقال، بل أثرٌ يبقى في القلوب.

فكم من كلمةٍ طيبةٍ أصلحت بين متخاصمين، وكم من عبارةٍ لطيفةٍ جبرت خاطرًا، وكم من لسانٍ حسنٍ كان سببًا في نشر المودة.

ولهذا لم يأمرنا الله أن نقول الحسن فحسب، بل قال: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي أن ينتقي المؤمن أطيب كلماته، وألين عباراته، وأقربها إلى القلوب.

ثم كشف لنا سبب ذلك فقال:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

فالشيطان قد يجعل من كلمةٍ قاسية بابًا للخصومة، ومن ردٍّ متعجّل سببًا لقطيعةٍ تدوم طويلًا.

فأحسن لسانك كما تُحسن عملك، وانتقِ كلماتك قبل أن تنطق بها، فالكلمة الطيبة صدقة، وقد تكون سببًا في جبر قلب، أو إصلاح نفس، أو إطفاء خصومة.

والمحسن حقًّا... لا يُحسن بيده فحسب، بل يُحسن بلسانه أيضًا.

✦ ❖ ✦ادفع بالتي هي أحسن✦ ❖ ✦

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

آيةٌ ترتقي بالنفس إلى منزلةٍ لا يبلغها إلا من هذّب قلبه بالإيمان.

فالناس إذا أُسيء إليهم، قابلوا الإساءة بمثلها، وربما أشدّ منها، فتتسع الخصومة، وتزداد القلوب قسوة.

أما المؤمن، فيتذكر توجيه ربه:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

لا لأن الإحسان ضعف، ولا لأن العفو هوان، ولكن لأن صاحب القلب الكبير يعلم أن الخير قد يفتح بابًا تعجز عنه القسوة.

فكم من كلمةٍ طيبةٍ أطفأت غضبًا، وكم من حِلْمٍ أنهى خصومة، وكم من إحسانٍ غيّر قلبًا كان ممتلئًا بالعداوة.

ولهذا جاءت ثمرة هذا الخلق العظيم:

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

ليس كل الناس سيتغيّرون، لكنك أنت لن تخسر شيئًا إذا جعلت الإحسان خُلُقك، وابتغيت به وجه الله.

فلا تجعل أول ردّك هو الغضب، ولا أسرع جوابك هو القسوة، بل ادفع بالتي هي أحسن، فلعلّ الله أن يُبدّل بها عداوةً إلى مودة، وجفاءً إلى أُلفة، وقلبًا بعيدًا إلى أخٍ قريب.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦برُّ الوالدين✦ ❖ ✦

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

ما أعظم هذه الوصية، وما أجلَّ هذا الأمر...

فقد قرن الله الإحسان إلى الوالدين بتوحيده في مواضع من كتابه، دلالةً على عظيم حقهما، ورفيع منزلتهما.

وبرُّ الوالدين ليس كلمةً تُقال، بل رحمةٌ في المعاملة، ولينٌ في الخطاب، وطاعةٌ في المعروف، وصبرٌ على ما قد يصدر منهما، ودعاءٌ لهما في حياتهما وبعد مماتهما.

وقد لا يستطيع أحدٌ أن يوفي والديه حقهما، لكن المؤمن يجتهد في الإحسان إليهما ما استطاع، ويغتنم وجودهما قبل أن يصبح البرُّ دعاءً، وتغدو الذكريات حنينًا لا يعود.

فلا تحتقر كلمةً طيبة، ولا ابتسامةً صادقة، ولا خدمةً يسيرة، فكل ذلك عند الله عبادةٌ عظيمة، وأجرٌ محفوظ.

ومن أعظم أسباب البركة والتوفيق أن يكون الوالدان راضيين عنك، فاجعل رضاهما طريقًا إلى رضا ربك، وامتثل أمره سبحانه:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

✦ ❖ ✦فوق العدل✦ ❖ ✦

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾

ما أعظمها من وصية، وما أجمعها لخير الدنيا والآخرة...

بدأ الله بالعدل، لأنه أساس استقامة الحياة، ثم ارتقى بعباده إلى منزلةٍ أعلى، وهي الإحسان.

فالعدل أن تعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وألا تظلم أحدًا، أما الإحسان فهو أن تزيد على ذلك فضلًا ورحمةً، وعفوًا ولينًا، وأن تبذل الخير دون انتظار مقابل.

فقد يعدل الإنسان مع الناس، لكنه لا يبلغ كمال الخلق حتى يُحسن إليهم. ولهذا لم يأمرنا الله بالعدل وحده، بل دعا عباده إلى مرتبةٍ أسمى، لأنها تُصلح القلوب، وتزرع المودة، وتشيع الرحمة بين الناس.

فلا تجعل غايتك أن تكون عادلًا فحسب، بل اجعل همَّك أن تكون محسنًا.

فالعدل يُقيم الحقوق، أما الإحسان فيبني القلوب، ويترك أثرًا طيبًا لا يُنسى.

وهكذا يرتقي المؤمن من أداء الواجب، إلى بذل الفضل، ومن العدل، إلى الإحسان...
وهناك تكمن جمال الأخلاق، وكمال الإيمان.

✦ ❖ ✦معيّةُ الله✦ ❖ ✦

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

ما أعظمها من منزلة، وما أجلّها من كرامة... ليس للمؤمن نعمةٌ في الدنيا أعظم من أن يكون الله معه.

فإذا كان الله معك، فمن عليك؟

وإذا كان ناصرك، فمن يغلبك؟

وإذا كان حافظك، فماذا تخشى؟

لكن هذه المعيّة العظيمة ليست لكل أحد، بل لها طريقٌ بيّنه الله في هذه الآية المباركة.

﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، فجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بطاعته، واجتنبوا ما نهى عنه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، فأخلصوا عبادتهم لربهم، وأحسنوا إلى خلقه، وجعلوا الإحسان خُلُقًا يرافقهم في أقوالهم وأفعالهم.

فهذه معيةُ التوفيق، والحفظ، والرحمة، والتأييد، يكرم الله بها أهل التقوى والإحسان. وكلما ازداد العبد تقوى وإحسانًا، ازداد قربًا من معية ربه.

فاجعل التقوى والإحسان طريقك في الحياة، ولا تلتفت إلى كثرة الصعوبات، ولا إلى قوة الأسباب؛ فإن من كان الله معه فلن يخذله، ولن يضيعه، وسيهديه إلى الخير، ويبارك له في أمره.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

فهنيئًا لمن نال هذه المعيّة؛ فما خاب من أيّده الله، ولا ضاع من تولاه، ولا نعمة في الدنيا تعدل أن يكون ربُّ العالمين معك.

بيني وبينك...

بيني وبينك أيها القارئ...

في الفصول الماضية كنت أحدثك عن أعمالٍ يعيشها القلب؛ عن اليقين، والصبر، والرضا، والتوكل.

أما هنا... فلا يكفي أن نعرف الإحسان، بل لا بد أن نعيشه.

أكتب هذه الكلمات وأنا أخاطب نفسي قبلك.

فكل إنسانٍ بطبيعته يحب أن يُشكر، ويحب أن يُقدَّر إذا أحسن، وهذا شعورٌ فطري لا يُلام عليه.

لكننا في دار ابتلاء، لا في دار جزاء.

ولذلك ليس كل معروفٍ يُشكر، ولا كل إحسانٍ يُقابَل بالإحسان، وقد تُقدِّم خيرًا فلا تجد إلا الجفاء أو النسيان.

وهنا يبدأ الامتحان الحقيقي...

لمن كنت تُحسن؟

أللناس؟

أم لله؟

فإذا كان إحسانك لله، فلا تجعل جفاء الناس يسرق منك خُلُقًا يحبّه الله.

ولا تسمح لتجربةٍ مؤلمة أن تمنعك من أن تكون سببًا في خيرٍ لغيرك.

وفي ختام هذا الفصل...

لا أطلب منك أن تحفظ خاطرة، ولا أن تتذكر عبارة.

وإنما أرجوك أن تخرج بعملٍ واحد.

ابحث اليوم عن إحسانٍ تستطيع أن تقدمه.

كلمةٌ طيبة، أو برٌّ بوالديك، أو عفوٌ عمّن أساء إليك، أو يدٌ تمتدُّ لمحتاج، أو دعوةٌ صادقة بظهر الغيب.

فقد يكون هذا الإحسان الصغير... أثقل في ميزانك مما تظن.

ولعل الله أن ينظر إلى قلبٍ أخلص له، فيجعل ذلك العمل سببًا لرضاه عنك.

وما أجمل أن نلقى الله يومًا...

وقد ترك كلٌّ منا أثرًا من الإحسان في هذه الدنيا.

الفصل السادس

الى لقاء الله

***

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

"من الله بدأنا، وإليه سنعود... ولكن كيف؟"

✦ ❖ ✦نِعَمٌ لا تُحصى✦ ❖ ✦

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ما أعظمها من آية، وما أوسع ما تفتحه في القلب من أبواب الشكر...

كم من نعمةٍ نعيش فيها كل يوم حتى اعتدناها، فلا نشعر بقيمتها إلا إذا فقدناها.

نعمة الإسلام، ونعمة الإيمان، ونعمة الصحة، والأمن، والأهل، والعقل، والسمع، والبصر... وغيرها من النعم التي تحيط بنا في كل لحظة.

ولو وقف الإنسان يتأملها حقًّا، لأدرك أنه يعيش في بحرٍ من عطايا الله لا ساحل له.

ولهذا قال سبحانه:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

فتأمل... كم نعمةً تراها اليوم أمرًا عاديًّا، وهي عند غيرك أمنيةٌ يدعو الله بها صباحًا ومساءً؟

وكم مرةً انشغل قلبك بما ينقصك، حتى نسي ما أغدقه الله عليك؟

فلا تجعل عينك معلقةً بما فقدت، بل بما أُعطيت، وأكثر من قول: الحمد لله؛ فإنها كلمةٌ تملأ الميزان، وتحيي القلب، وتفتح أبواب الرضا.

ومن عرف نعم الله، أحبه، وشكره، واستحيا أن يعصيه.

فهنيئًا لمن عاش يرى نعم الله بعين قلبه قبل عينه، فيزداد شكرًا، ويقينًا، وقربًا من ربه.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

✦ ❖ ✦غايةُ الحياة✦ ❖ ✦

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

آيةٌ توقظ القلب من غفلته، وتضع أمام الإنسان حقيقةً لا ينبغي أن ينساها:

أنك لم تُخلق عبثًا.

لم تأتِ إلى هذه الدنيا لتأكل وتشرب، وتجمع من متاعها، ثم تمضي وكأن شيئًا لم يكن، وراء هذه الأيام غاية، ووراء هذه الحياة رجوع، ووراء كل عملٍ حساب.

فأنت اليوم تمضي في طريقٍ نهايته الله، وكل يومٍ يمر من عمرك يقرّبك من ذلك اللقاء، سواء شعرت بذلك أم غفلت عنه.

وهنا سؤالٌ يستحق أن نقف عنده طويلًا:

ما دمنا جئنا إلى هذه الدنيا بأمر الله، وسنعود إليه يومًا... فكيف نريد أن نعود؟

هل نعود وقد ملأنا صحائفنا بما ينفعنا؟

أم نعود وقد أضاعتنا الدنيا وأخذتنا غفلتها؟

فليست قيمة الحياة في طولها، ولا فيما جمعناه منها، وإنما فيما صنعناه فيها، وما قدمناه للقاء الله، فلا تعش أيامك وكأنها الغاية، فالدنيا طريقٌ وليست دار البقاء.

اعمل، وتعلّم، واسْعَ، وابنِ، وأحبب، وأحسن، واستمتع بما أحلّ الله لك، لكن لا تنسَ وأنت تمضي في كل ذلك أنك راحل.

واجعل لكل يومٍ شيئًا يقربك من الله، ولكل نعمةٍ شكرًا، ولكل قدرةٍ طاعة، ولكل أثرٍ خيرًا.

فإن كان لا بد من الرحيل، فليكن لك في هذه الدنيا ما يستحق أن تأخذه معك إلى هناك.

ما دمت ستعود إلى الله، فابدأ من اليوم في الاستعداد لذلك اللقاء.

✦ ❖ ✦بين العادة والحق✦ ❖ ✦

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

ليس كل ما اعتدناه حقًّا، وليس كل ما وجدنا عليه آباءنا طريقًا ينبغي أن نسير فيه دون أن نسأل.

فالإنسان يألف ما نشأ عليه، حتى يصبح المألوف عنده كأنه حقيقةٌ لا تُناقش، وقد يرفض الصواب أحيانًا لا لأنه لا يراه، بل لأنه لم يعتده.

وهنا يحتاج المؤمن إلى شجاعةٍ مع نفسه؛ أن يقف أمام ما ورثه، وما اعتاده، وما يفعله الناس من حوله، ويسأل:

هل هذا يرضي الله؟

فقد تكون العادة طيبةً فنتمسك بها، وقد تكون أمرًا مباحًا فنأخذ منها ما لا يخالف الدين، وقد تكون خطأً يحتاج إلى أن نتركه ولو كان شائعًا بين الناس.

فالحق لا يصبح حقًّا لأن الناس اعتادوه، ولا يصبح باطلًا لأن الناس استنكروه؛ إنما يُوزن بميزان الله.

فلا تجعل المألوف أقوى من الحق في قلبك، ولا تقل: «هكذا وجدنا الناس يفعلون»، ثم تغلق باب المراجعة.

راجع نفسك، وراجع ما اعتدت عليه، فإن كنت على خيرٍ فاثبت، وإن وجدت خطأً فالشجاعة ليست في الإصرار عليه، بل في تركه لله.

فقد يأتي يومٌ لا ينفعك فيه أن تقول: هكذا اعتدنا... بل ينفعك أن تقول:

يا رب، عرفت الحق فاتبعته.

✦ ❖ ✦رفيقُ الطريق✦ ❖ ✦

﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾

ما أقساها من كلمة...

إنها ليست صرخة ألمٍ في الدنيا، بل صرخة ندمٍ يوم القيامة، حين يكتشف الإنسان أن الطريق الذي سار فيه بدأ بخطوةٍ مع رفيقٍ لم يختره على بصيرة.

فليس كل من يبتسم لك ناصحًا، وليس كل من يؤنس وحدتك يقودك إلى الخير.

فقد يكون أقرب الناس إليك هو أبعدهم بك عن الله؛ يهوّن عليك المعصية، ويثقّل عليك الطاعة، ويشغلك عن آخرتك حتى تظن أنك على خير.

وحين تنكشف الحقائق، لا يبقى إلا الندم.

فاختر من إذا رأيته ذكّرك بالله، وإذا ضعفت أعانك، وإذا نسيت ذكّرك، وإذا أخطأت أخذ بيدك إلى التوبة.

فالصحبة ليست رحلة أيام، بل قد تكون طريقًا إلى الجنة... أو طريقًا إلى الحسرة.

﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

فانظر اليوم من يسير معك، قبل أن يأتي يومٌ تتمنى فيه لو أنك لم تعرف بعض الرفقاء.

✦ ❖ ✦أيهما تختار؟✦ ❖ ✦

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾

في كل يومٍ تمرّ بنا اختياراتٌ صغيرة، قد لا نشعر بثقلها، لكنها قد ترسم شيئًا من طريقنا إلى الله.

لحظةُ شهوةٍ عابرة، أو مالٍ لا يحلّ، أو كلمةٍ نعرف أنها لا ترضي الله، أو موقفٍ يطلب منا أن نختار بين رضا الناس ورضا رب الناس... وفي تلك اللحظة، لا تحتاج إلى كلامٍ كثير.

اسأل نفسك:

أيهما تختار؟

لذةٌ تنتهي، أم نعيمٌ لا ينتهي؟ رضا إنسانٍ قد يزول، أم رضا الله؟

شيءٌ تفنى معه الدنيا، أم شيءٌ يبقى لك عند ربك؟

قد تكون المعصية في لحظتها سهلة، وقد يبدو تركها ثقيلًا على النفس، لكن المؤمن ينظر أبعد من اللحظة؛ يرى ما بعدها، ويتذكر أنه ليس في هذه الدنيا إلى الأبد.

فلا تجعل لذةً قصيرةً تُنسيك نعيمًا عظيمًا، ولا تجعل خوفك من الناس يدفعك إلى ما يسخط الله، وإذا وقف قلبك يومًا بين طريقين، فتذكر هذا السؤال:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾؟

ثم اختر ما تتمنى أن تلقى الله به.

فالدنيا ستنتهي، والشهوة ستنقضي، وكلام الناس سيُنسى...

أما ما اخترته لله، فلن يضيع.

فاختر اليوم ما يسعدك يوم اللقاء.

✦ ❖ ✦اقرأ كتابك✦ ❖ ✦

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ ۚ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

ما أهيبها من لحظة...

يومٌ تقف فيه بين يدي الله، وليس بين يديك إلا كتابٌ واحد... كتابُ أعمالك.

لن يحتاج أحدٌ أن يخبرك بما صنعت، ولن تُسأل عما لا تعلم، فأنت القارئ، وأنت الشاهد على نفسك.

كل كلمةٍ قلتها، وكل نظرةٍ نظرتها، وكل خطوةٍ مشيتها، وكل إحسانٍ صنعته، وكل ذنبٍ أخفيته... ستجده مكتوبًا، لا يغيب منه شيء.

إن حياتك كلها ليست إلا صفحاتٍ تُكتب كل يوم، وأنت مؤلفها دون أن تشعر.

فاختر ما تكتب فيها، وأحسن ما تستطيع، واجعل سطورها مليئةً بالصدق، والطاعة، والإحسان، والكلمة الطيبة، والتوبة، لعلها تكون سببًا في نجاتك يوم تلقى ربك.

وما دامت أنفاسك تتردد، فما زالت صفحات كتابك تُكتب، وما زال باب التوبة مفتوحًا، وما زالت الفرصة بين يديك لتبدّل صفحةً سوداء بأخرى بيضاء، وخطيئةً بحسنة، وغفلةً بإنابة.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ ۚ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

فإذا أغلقت هذا الكتاب، فلا تنسَ أن هناك كتابًا آخر تكتبه كل يوم...

فاكتب فيه ما يسرك أن تقرأه يوم تقف بين يدي الله.

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦انت تعلم✦ ❖ ✦

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾

ما أشدَّ وقع هذه الآية على النفس... ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾

أنت تعلم حقيقة نفسك، وتعرف أين أخطأت، ومتى قصّرت، وما الذي تخفيه خلف الأعذار.

قد تستطيع أن تقنع الناس، وقد تستطيع أن تضع ألف تبرير لتصرفاتك، لكنك في أعماق نفسك تعرف الحقيقة، فلا تنتظر يوم القيامة حتى تعرف من أنت؛ حاسب نفسك اليوم قبل أن تُحاسب غدًا.

اسأل نفسك بصدق: هل أنا كما أظهر للناس؟

هل ما بيني وبين الله كما ينبغي؟

هل هناك ذنب أؤجّل التوبة منه؟

هل هناك حقٌّ لأحدٍ ما زال في ذمتي؟

هل أستطيع أن ألقى الله بهذه الحال؟

ولا تجعل الأعذار ستارًا يحجبك عن إصلاح نفسك؛ فالاعتراف بالتقصير ليس هزيمة، بل قد يكون أول خطوة في طريق التوبة والإصلاح.

فما دمت اليوم تعرف خطأك، فهذه نعمة؛ لأن باب التوبة ما زال مفتوحًا، وما زال بإمكانك أن تغيّر ما بينك وبين الله.

حاسب نفسك الآن، قبل أن يأتي يومٌ لا تنفع فيه المعاذير.

فأصدق من يواجهك بحقيقتك هو أنت... فلا تكذب على نفسك.

✦ ❖ ✦ما الذي يبقى؟✦ ❖ ✦

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ﴾

ما أقصرها من آية، وما أصدقها من حقيقة... كلنا راحلون.

كل ما نتنافس عليه، وكل ما نختلف من أجله، وكل ما نُرهق قلوبنا في سبيله، سيأتي عليه يومٌ ينتهي فيه كل شيء، ونترك خلفنا ما جمعناه، وما أحببناه، وما تعلّقنا به، ونمضي وحدنا إلى الله.

كم من أمرٍ ظننّاه عظيمًا بالأمس، ثم مضى كأنه لم يكن، وكم من خصومةٍ أرهقت القلب، ثم انتهت، وبقي أثرها في صحيفة الأعمال.

فالدنيا مهما طالت قصيرة، ومهما زيّنت لنا فهي إلى زوال، والإنسان فيها عابرٌ مهما ظن أنه باقٍ.

وهنا يسأل القلب: إذا كان كل شيءٍ سيفنى... فما الذي يبقى؟

يبقى ما قدمته لله.

تبقى صلاةٌ خشعت فيها، وصدقةٌ أخفيتها، وكلمةٌ طيبةٌ جبرت بها قلبًا، وإحسانٌ فعلته ولم ينتبه له أحد، وتوبةٌ صادقةٌ عدت بها إلى ربك، وأثرٌ صالحٌ تركته بعدك.

فلا تُعلّق قلبك بما يفنى، وتنسى ما يبقى، ولا تجعل أيامك تمضي في جمع ما ستتركه، وتنسى أن تجمع لما ستلقاه.

فكلنا راحلون، وسيُطوى لكل إنسان كتابه، ويبقى السؤال الذي يستحق أن يشغل قلبه:

ماذا أعددت للقاء الله؟

فالسعيد ليس من طال بقاؤه في الدنيا، وإنما من أحسن فيها ما يبقى له بعد الرحيل.

✦ ❖ ✦أثرٌ يبقى✦ ❖ ✦

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

قد يظن الإنسان أن ما يفعله ينتهي بانتهاء اللحظة، وأن كلمةً قالها، أو شيئًا نشره، قد مضى وانتهى.

لكن بعض الآثار لا تنتهي بانتهاء أصحابها.

فقد تنشر كلمةً، أو صورةً، أو مقطعًا، ثم تنساها، بينما تبقى تنتقل من إنسانٍ إلى آخر، وتترك أثرها في قلوبٍ لم تكن تعرفها قبل أن تصل إليها.

ولهذا فالمؤمن لا يسأل نفسه فقط: ماذا فعلت؟

بل يسأل أيضًا: إلى ماذا دعوت؟ وماذا تركت خلفك؟

فكما يمكن للإنسان أن يكون سببًا في نشر ما يفسد القلوب، يستطيع أن يكون سببًا في نشر ما يصلحها؛ آيةٍ تذكّر غافلًا، أو كلمةٍ ترفع مهمومًا، أو علمٍ ينتفع به إنسان، أو نصيحةٍ تعيد قلبًا إلى الله.

فما دمت ستغادر هذه الدنيا يومًا، فاحرص أن لا يكون رحيلك نهاية كل أثرٍ لك.

اترك خلفك خيرًا يُذكر، وعلمًا يُنتفع به، وكلمةً طيبةً تعيش في قلب أحدهم، وأثرًا صالحًا يشهد لك بعد رحيلك.

وقبل أن تنشر شيئًا، قف لحظةً واسأل نفسك:

لو لقيت الله غدًا، أأحب أن أجد هذا الأثر في كتابي؟

فبعض ما تنشره قد يمضي مع اللحظة، وبعضه قد يبقى بعدك سنين... فاختر ما يبقى لك، قبل أن ترحل.

✦ ❖ ✦كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت✦ ❖ ✦

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

ما أقصرها من آية... وما أثقلها في الميزان.

حقيقةٌ لا يستثنى منها أحد؛ غنيٌّ أو فقير، قويٌّ أو ضعيف، صغيرٌ أو كبير... كل نفسٍ ستذوق الموت، ثم ترحل عن هذه الدنيا بما حملته من عمل.

كم ننشغل بأيامنا، ونؤجل التوبة، ونؤخر الخير، وكأن العمر يضمن لنا غدًا.

لكن هذه الآية توقظ القلب، وتذكره أن لكل بدايةٍ نهاية، وأن أقرب الأشياء إلينا... هو الموت.

وليس المقصود أن يعيش المؤمن حزينًا أو خائفًا، بل أن يعيش مستعدًا.

فيتوب إذا أذنب، ويُحسن إذا عمل، ويغتنم أيامه قبل أن تصبح أمنيةً لا يستطيع العودة إليها.

فإذا تذكرت الموت، فلا تجعل ذلك سببًا لليأس، بل اجعله سببًا لأن تُصلح ما بينك وبين الله، وتغتنم ما بقي من عمرك، فإن أجمل ما يلقى به العبد ربَّه قلبٌ تائب، وعملٌ صالح.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

فأحسن زادك قبل أن يحين موعد الرحيل، فما أسرع الدنيا إلى الزوال، وما أعظم السعادة لمن لقي الله وهو راضٍ عنه.

✦ ❖ ✦الموت ليس النهاية✦ ❖ ✦

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾

ما أعظم هذه الآية، وما أعمق ما تصححه في نظرتنا إلى الموت... نحن بطبيعتنا نخاف الموت، ونراه نهايةً لكل شيء، وكأن الإنسان إذا فارق الدنيا انتهى وجوده، وانقطعت قصته.

لكن القرآن يعلّمنا أن الموت ليس فناءً، وإنما انتقالٌ من دارٍ إلى دار، وانقطاعٌ عن حياةٍ نعرفها، وبدايةٌ لحياةٍ لا نعرف حقيقتها إلا بما أخبرنا الله به.

ولهذا قال سبحانه عن الشهداء:

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

فما نراه نحن نهايةً، ليس نهاية القصة عند الله.

وهنا يتغير السؤال... ليس السؤال: متى سأموت؟

فذلك أمرٌ لا نملكه.

ولكن السؤال الأهم: على أي حالٍ سألقى الله؟

هل سألقاه بقلبٍ أثقلته الغفلة، وأيامٍ امتلأت بما لا ينفع؟

أم سألقاه بقلبٍ تاب، وعمل، وأحسن، وحاول أن يصلح ما بينه وبين ربه؟

لذلك لا تجعل تذكّر الموت سببًا للخوف وحده، بل اجعله سببًا للحياة الحقيقية؛ فتُصلح صلاتك، وتراجع نفسك، وتردّ المظالم، وتُحسن إلى من حولك، وتستعد لذلك اليوم الذي لا ينفع فيه إلا ما قدمت.

ولا تتمنَّ الموت هربًا من الدنيا، بل عش ما بقي منها طاعةً لله، واعمر أيامك بما يسرك أن تلقاه في صحيفتك.

فأنت لا تملك أن تختار متى ترحل،

لكن بين يديك اليوم فرصةٌ أن تختار كيف تلقى الله.

فالموت ليس النهاية...

إنما النهاية الحقيقية أن ينتهي عملك، ويُغلق كتابك، ثم تبدأ حياةٌ لا عودة بعدها إلى الدنيا.

فيا من ما زال في مهلة الحياة:

أحسن زادك، وأصلح قلبك، واستعد للقاء ربك.

فلسنا نعرف متى يكون الرحيل، لكننا نعرف إلى أين نمضي.

✦ ❖ ✦بين البداية والنهاية✦ ❖ ✦

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

ما أعظمها من كلمة، وما أعمق ما تختصره من حقيقة حياتنا... ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾.

لسنا لأنفسنا، ولا نملك أعمارنا وأجسادنا وأموالنا ملكًا مطلقًا، وإنما نحن عبادٌ لله، وما في أيدينا من نعمٍ وأسبابٍ إنما هو من فضله، وما نعيشه اليوم ليس إلا نعمةً أودعها الله عندنا إلى أجلٍ كتبه.

ثم يقول سبحانه:

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

فمهما طالت بنا الأيام، ومهما جمعنا من الدنيا، فسنترك كل ذلك يومًا، ونرجع إلى من خلقنا، وهناك يبدأ الحساب، ويظهر ما قدمناه في هذه الحياة.

فإذا كنت من الله وإليه راجعًا، فلماذا تجعل الدنيا أكبر همك؟

ولماذا تُصرّ على معصيةٍ من أجل لذةٍ عابرة؟

ولماذا تتعلق بما سيتركك يومًا، وتنسى من ستلقاه؟

أفق يا أخي الكريم... فالعمر أقصر مما نظن، والفرصة التي بين أيدينا لن تبقى إلى الأبد.

تب إلى الله إن أخطأت، وأصلح ما استطعت، وردّ الحقوق إلى أهلها، وأحسن في أيامك قبل أن تصبح الأيام ذكريات، والعمل صحيفةً لا تستطيع أن تضيف إليها شيئًا.

ولا تجعل تذكّر الرجوع إلى الله سببًا لليأس، بل اجعله دافعًا إلى التوبة؛ فربنا رحيم، وباب التوبة مفتوح، وما دام في العمر بقية، فما زالت هناك فرصة للعودة.

هذه الدنيا دار ابتلاء، وليست دار خلود؛ نمرّ بها ثم نرحل، ونأخذ معنا ما قدمناه، لا ما جمعناه.

فاجعلها طريقًا لا غاية، وزادًا لا وطنًا، ومزرعةً لما تتمنى أن تحصده حين تقف بين يدي الله.

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ ... فلا نتكبر.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ... فلا نغفل.

وبين البداية والنهاية، ليست لنا إلا هذه الأيام؛

فاغتنمها قبل أن تصبح ماضيًا،

وأحسن السير فيها إلى الله،

فإننا منه بدأنا... وإليه المصير.

✦ ❖ ✦قبل أن تقول: يا حسرتى✦ ❖ ✦

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾

ما أشدَّ وقع هذه الآية على القلب... ﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾ ...

نداءُ نفسٍ أدركت الحقيقة، ولكن بعد أن انتهت الفرصة.

يا أخي القارئ، إن كنت تؤجل التوبة، وتقول: سأعود إلى الله عندما أستقيم، أو عندما أفرغ، أو عندما أتخلص من ذنوبي... فاعلم أن أخطر ما في التأجيل أنك لا تملك غدك.

إن موعد التوبة هو الآن، وموعد الرجوع إلى الله هو الآن؛ قبل أن يأتي يومٌ تتمنى فيه الرجوع ولا تستطيع، وتقول كما أخبر الله سبحانه:

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

هناك لن تكون عودة، ولن يكون عملٌ جديد، ولن تُمنح فرصةٌ أخرى.

أما اليوم، فما زالت الفرصة بين يديك.

لقد أعطاك الله من العمر ما أعطاك، وسترك وأنت تعصيه، وأمهلك بعد تقصيرك، وفتح لك باب التوبة مرةً بعد مرة.

فلا تؤخر الرجوع إليه.

قم، وتب إلى الله، وأقبل عليه بقلبك، وابدأ بإصلاح ما تستطيع من حياتك.

ولا تظن أن التوبة تعني أنك لن تخطئ بعد اليوم؛ فأنت بشر، قد تضعف، وقد تغلبك نفسك، وقد تسقط بعد أن تحاول النهوض.

لكن الفرق أن المؤمن لا يُصرّ على خطئه.

إذا أذنب تاب، وإذا سقط نهض، وإذا ابتعد عاد، وإذا غلبته نفسه لم يغلبه اليأس.

فلا تقل: لقد أذنبت كثيرًا، فكيف أعود؟

بل قل: لي ربٌّ غفور، وباب التوبة ما زال مفتوحًا.

لا تنتظر أن تصبح صالحًا حتى تعود إلى الله؛ عد إلى الله ليصلحك.

اليوم تستطيع أن تتوب.

اليوم تستطيع أن تبدأ.

اليوم تستطيع أن تترك ذنبًا، وتردّ حقًا، وتصلح قلبًا، وتفتح صفحةً جديدة بينك وبين ربك.

أما غدًا... فلا أحد يملك أن يضمنه.

فلا تجعل آخر أمنيتك يومًا:

﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾.

اجعل أمنيتك اليوم أن تقف بين يدي الله بقلبٍ صادق وتقول:

يا رب... قد أخطأت، وقد قصّرت، ولكنني رجعت إليك.

فما دام القلب حيًّا، وما دام في العمر بقية، فلا تؤخر الرجوع إلى الله.

تب قبل أن تقول: يا حسرتى.

✦ ❖ ✦قبل أن تلقى الله بحقوق العباد✦ ❖ ✦

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾

ما أشدَّ وقع هذه الآية على من ظلم عباد الله...

قد يظن الإنسان أن ما فعله قد انتهى، وأن الأيام ستنسي الناس، وأن المظالم ستُدفن مع مرور الزمن.

لكن الله يقول:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا﴾.

فما نسيه الناس لم ينسه الله، وما خفي عن أعين الخلق لم يخفَ عن رب الخلق.

كل حقٍّ ضُيّع، وكل مالٍ أُخذ بغير حق، وكل مظلمة، وكل أذى، وكل قلبٍ كُسر بغير حق... كل ذلك معلوم عند الله، وسيأتي يومٌ تُعرض فيه الأعمال، ويُردُّ فيه لكل ذي حقٍّ حقه.

ولهذا، يا أخي القارئ، إياك ثم إياك أن تلقى الله وفي رقبتك حقوقٌ للعباد.

إن ظلمت أحدًا، فردَّ إليه حقه.

وإن أخذت مالًا بغير حق، فأعده.

وإن أفسدت ما بينك وبين إنسان، فبادر إلى إصلاحه.

وإن قصّرت في حق أحد، فجاهد نفسك في جبر ما تستطيع.

فلا تؤجل ما تستطيع إصلاحه اليوم إلى غد؛ فقد يأتي يومٌ تتمنى فيه أن تعود إلى الدنيا لتردَّ حقًا، أو تصلح ظلمًا، أو تعتذر ممن آذيته، ولكن لا تستطيع.

وتذكّر أن التوبة من حقوق العباد ليست كلمةً تُقال باللسان فقط؛ فمن تمام التوبة أن يردَّ الإنسان الحقوق إلى أهلها، ويصلح ما أفسد، ويتخلص من المظالم ما استطاع.

فقبل أن تنام الليلة، اسأل نفسك سؤالًا صادقًا:

هل في ذمتي حقٌّ لأحد؟

لا تهرب من السؤال، ولا تؤجله.

راجع أموالك، وكلماتك، ومعاملاتك، وعلاقاتك، وما صنعت بيدك ولسانك.

فما دام في العمر بقية، فالباب مفتوح.

ردَّ حقًّا، واعتذر، وأصلح، واجبر ما استطعت.

طهّر ذمتك اليوم، قبل أن تقف بين يدي الله غدًا، ولا تملك إلا أن تتمنى لو عاد بك العمر لتفعل.

فالسعيد من لقي الله خفيفَ الظهر من حقوق العباد، سليمَ القلب، لم يحمل معه إلى قبره مظلمةً لأحد.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

فما زالت الفرصة بين يديك... فلا تؤخر إصلاح ما تستطيع إصلاحه اليوم.

✦ ❖ ✦يومُ النجاة✦ ❖ ✦

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾

ما أعظمها من آية تُوقظ القلب من غفلته، وتذكّره بيومٍ لا يشبه أيام الدنيا... ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

موقفٌ سيأتي لا محالة، يقف عنده الناس جميعًا، فلا ينفع حينها تأجيل، ولا تنفع أمنيةٌ لم تُعمل لها، ولا يستطيع أحدٌ أن يهرب من قدر الله.

ثم تأتي الآية بما يفتح باب الرجاء في أشد مواضع الخوف:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾.

يا لها من كلمة...

نُنَجِّي.

فبعد الخوف نجاة، وبعد الموقف العظيم رحمة، ولكنها نجاةٌ أُعدّ لها في الدنيا، واتُّقي الله من أجلها قبل أن يأتي ذلك اليوم.

فلا تنتظر حتى ترى ذلك الموقف لتتمنى النجاة؛

اعمل لها الآن.

اتقِ الله في خلواتك، وأحسن عملك، وتب من ذنوبك، وردّ المظالم، وأكثر من الطاعات، ولا تحتقر عملًا صالحًا تستطيع أن تقدمه، فلعلك لا تدري أي عملٍ يكون سببًا لرحمة الله ونجاتك.

وتذكّر أن النجاة ليست بكثرة ما تتمنى، وإنما برحمة الله أولًا، ثم بما تقدمه من تقوى وإيمان وعمل صالح.

فإذا قرأت:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾،

فلا تجعلها آيةً تمر على عينيك، بل اجعلها سؤالًا يسكن قلبك:

هل أعددتُ نفسي لذلك اليوم؟

فما زالت أمامك فرصة، وما زال باب التوبة مفتوحًا، وما زالت الصحيفة تُكتب.

اللهم اجعلنا من أهل التقوى، ومن الذين تنالهم رحمتك يوم يشتد الخوف، ونجّنا من النار، وأدخلنا الجنة برحمتك، وارزقنا فيها جوار نبيك ﷺ.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾.

فيا رب... اجعل لنا في ذلك اليوم نصيبًا من النجاة.

✦ ❖ ✦ادعوني✦ ❖ ✦

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

ما أعظمها من دعوة... أن يناديك الله بنفسه، ويفتح لك بابًا لا يحتاج إلى واسطة، ولا يُغلق في وجهك مهما كثرت حاجاتك: ﴿ادْعُونِي﴾.

فإذا ضاقت بك الدنيا، فلك ربٌّ تدعوه، وإذا عجزت الأسباب، فلك ربٌّ لا يعجزه شيء، وإذا حملت في قلبك أمنيةً لا يقدر عليها إلا الله، فبابه مفتوح.

كم من أمنيةٍ ظننا أنها بعيدة، وكم من أمرٍ حسبناه مستحيلًا، ثم جاء فرج الله من حيث لم نحتسب.

لكن الدعاء ليس أن نطلب من الله أن يجري الأمور كما نريد، بل أن نثق به حتى عندما لا تأتي كما تمنينا؛ فهو يعلم ما لا نعلم، ويرى ما لا نرى، ويختار لنا برحمته ما قد نعجز عن اختياره لأنفسنا.

وقد تتأخر الإجابة، لا لأن الله لم يسمعك، بل لأن وراء التأخير حكمةً لا تعرفها، ولعل ما تظنه حرمانًا يكون عين الرحمة، وما حسبته تأخرًا يكون إعدادًا لخيرٍ أعظم.

فلا تترك الدعاء حين تتأخر الإجابة، ولا تجعل ضيقك يحجب عنك باب الرجاء.

ادعُ الله في فرحك كما تدعوه في حزنك، وفي قوتك كما تدعوه في ضعفك، وأخبره بحاجتك، وإن كنت تعلم أنه أعلم بها منك.

فما دام الله قد قال:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فلا تيأس من بابٍ فتحه الله لك، ارفع يديك... فما خاب قلبٌ طرق باب الله.

✦ ❖ ✦لعلَّ الله يُحدِثُ بعد ذلك أمرًا✦ ❖ ✦

﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾

ما أرقَّها من آية، وما أوسع ما تتركه في القلب من رجاء...

قد يصل الإنسان إلى لحظةٍ يظن فيها أن كل الأبواب قد أُغلقت، وأن الأمر الذي أوجعه لن يتغير، وأن ما فقده لن يعود، وأن الطريق أمامه قد انتهى.

لكن الله يترك في قلب المؤمن كلمةً تُبقي باب الأمل مفتوحًا:

﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

أنت لا تعرف ماذا سيأتي بعد هذا اليوم، ولا تعلم ما الذي يخبئه الله لك في الصفحة التالية من حياتك.

قد يُغلق بابٌ ظننته خيرًا لك، فيفتح الله لك بابًا لم يخطر لك على بال.

وقد يطول انتظارك، ثم يأتيك من الخير ما يجعلك تحمد الله على تأخيره.

وقد تظن أن ما نزل بك نهاية، ثم تكتشف بعد زمنٍ أنه كان بدايةً لشيءٍ لم تكن تراه.

فلا تحكم على قصتك من صفحةٍ واحدة، ولا تجعل ضيق اللحظة يخبرك بمستقبل الأيام؛ فأنت لا ترى إلا ما أمامك، أما الله فيعلم ما كان وما يكون وما سيكون.

لذلك اصبر، وأحسن الظن بربك، وخذ بالأسباب التي تستطيعها، ثم اترك لله ما لا تملك.

فربما كان وراء هذا الذي يؤلمك أمرٌ لم يظهر بعد، وربما كانت الحكمة التي تبحث عنها تُكتب لك وأنت لا تشعر.

وما دمت مع الله، فلا تقل: انتهى كل شيء، بل قل بقلبٍ مؤمن:

لعلَّ الله يُحدِثُ بعد ذلك أمرًا.

فكم من نهايةٍ ظنناها نهاية الطريق، فإذا بها بداية طريقٍ آخر، وكم من أمرٍ أبكانا في بدايته، ثم حمدنا الله على ما كان في نهايته.

فاطمئن...

فأنت لا تعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك،

لكن الله يعلم، وكفى بعلم الله أن يطمئن به قلبك.

✦ ❖ ✦ نعمٌ لا نشعر بها✦ ❖ ✦

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾

كم مرة رفعنا أيدينا إلى السماء وقلنا: يا رب أعطني، يا رب ارزقني، يا رب حقق لي ما أتمنى... لكن هل توقفنا يومًا لنتأمل كم من دعواتٍ قديمة نعيش اليوم في نعيمها دون أن نشعر؟

أهلُك نعمة، صحتك نعمة، بيتك نعمة، وجود من يحبك حولك نعمة، بل حتى ضوضاء الأطفال وشغبهم في المنزل قد تكون نعمةً ستتمنى يومًا لو عادت.

نحن كثيرًا ما ننظر إلى ما ينقصنا، حتى ننسى ما بين أيدينا.

لذلك، قبل أن ترفع قائمة طلباتك إلى الله، ارفع قلبك بالحمد، وانظر حولك قليلًا.

تأمل ما أعطاك الله، وما صرف عنك، وما حفظك منه، وما أنعم به عليك دون أن تطلبه أصلًا.

فكم من نعمةٍ لم نسأل الله عنها، لكنه أعطانا إياها، وكم من بلاءٍ لم نعلم أنه كان سيصيبنا، فصرفه عنا برحمته.

فلا تجعل دعاءك كله: يا رب أعطني، بل اجعل فيه أيضًا: يا رب لك الحمد على ما أعطيتني.

فربما اكتشفت، عندما تتأمل نعم الله عليك، أنك تعيش في إجابات دعواتٍ كثيرة كنت قد نسيتها.

✦ ❖ ✦ طمأنينةُ القلوب✦ ❖ ✦

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

ما أعظمها من آية، وما أصدقها من حقيقة... كل إنسانٍ يبحث عن الطمأنينة؛ فمنهم من يظنها في المال، ومنهم من يفتش عنها في المنصب، أو الشهرة، أو كثرة ما يملك.

لكن كثيرًا ما يصل الإنسان إلى ما كان يتمناه، ثم يكتشف أن قلبه ما زال يبحث عن شيءٍ لا تمنحه الدنيا.

وهنا يأتي الجواب من رب العالمين: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

فالطمأنينة ليست شيئًا يُشترى، ولا راحةً يمنحها الناس، بل نورٌ يقذفه الله في قلب من عرفه، وذكره، وأنس بقربه.

فإذا ضاق صدرك، فلا تبحث عن راحة قلبك في كل باب، قبل أن تطرق باب الله.

وإذا أثقلتك الهموم، فأقبل على القرآن، وأكثر من الدعاء، والتسبيح، والاستغفار، فإن القلوب لا يحييها شيءٌ كما يحييها ذكر خالقها.

قد يملك الإنسان من الدنيا ما يشتهي، وقلبه مضطرب، وقد يملك القليل، لكنه يعيش في سكينةٍ لا يعرف سرها إلا من ذاق حلاوة القرب من الله.

فلا تجعل الذكر كلماتٍ يرددها لسانك فحسب، بل اجعله حياةً يعيشها قلبك، فإن القلب إذا امتلأ بالله، هان عليه ما سواه.

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

فإذا أردت سكينةً لا تزول، وراحةً لا تنقطع، فاجعل لك نصيبًا من ذكر الله في كل يوم، فإن من عرف طريق الله... عرف طريق الطمأنينة.

✦ ❖ ✦ أما آن؟✦ ❖ ✦

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾

ما أبلغها من آية، وما أشدَّ وقعها على القلب...

إنها ليست خطابًا لأناسٍ مضوا، بل نداءٌ يتجدد لكل مؤمن كلما مرَّ بها.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ ...

أما آن لقلبك أن يعود إلى ربه؟

أما آن أن يلين بعد قسوته، ويخشع بعد غفلته، ويأنس بكتاب الله بعدما شغلته الدنيا؟

تمر الأيام، وتمضي الأعوام، وينشغل الإنسان بأمورٍ لا تنتهي، حتى يقسو القلب شيئًا فشيئًا، ولا يشعر أنه ابتعد إلا حين يفتقد لذة الطاعة، وحلاوة القرآن، وسكينة الذكر.

لكن رحمة الله أعظم من غفلتنا، ولهذا لم يُغلق الباب، بل نادانا بهذا السؤال الذي يوقظ القلوب.

فإن وجدت في قلبك فتورًا، فلا تيأس، فإن القلوب تحيا بذكر الله، وتلين بالقرآن، وتعود إليه بخطوةٍ صادقة، وتوبةٍ صادقة.

ولا تؤجل رجوعك إلى الله، فالعمر يمضي، والفرصة التي بين يديك اليوم قد لا تتكرر غدًا.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

فإذا سمعت هذه الآية يومًا... فلا تمرَّ عليها مرور العابر، بل قف معها لحظة، واسأل نفسك بصدق:

أما آن لقلبي أن يعود؟

❦ ❦ ❦

✦ ❖ ✦ قد أُوتيتَ سُؤلك✦ ❖ ✦

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾

ما أحنَّها من آية، وما أوسع ما تزرعه في القلب من رجاء... رفع موسى عليه السلام دعاءه إلى ربه، وسأله ما يحتاجه لأداء رسالته، ولم يترك حاجةً في صدره إلا بثّها بين يدي الله.

فجاءه الجواب في كلماتٍ قليلة، لكنها ملأت قلبه طمأنينة:

﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

ما أعظم أن يسمع العبد هذا الجواب من ربه!

إنها رسالةٌ لكل من رفع يديه صادقًا، ولكل من طال انتظاره، ولكل من ظن أن دعاءه قد نُسي.

فالله يسمع دعاءك، ويعلم حاجتك، ويرى دمعتك، ولا يخفى عليه ما في قلبك، وإن تأخرت الإجابة، فإنها لا تتأخر إلا لحكمةٍ يعلمها، ورحمةٍ يدبرها، وخيرٍ يختاره لك.

فلا تملَّ من الدعاء، ولا تستبطئ الفرج، وأكثر من طرق باب الكريم، فإن من عرف الله، أيقن أن خزائنه لا تنفد، وأن عطاءه لا تحدّه الأسباب.

وربما يأتي يومٌ ترى فيه أثر دعواتٍ طال انتظارها، فتدرك أن الله لم ينسك لحظة، وإنما كان يدبّر لك الخير في الوقت الذي يراه أصلح لك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

فادعُ الله بقلبٍ حاضر، وأحسن الظن به دائمًا، فلعلَّ أعظم أمنياتك تكون يومًا ما أقرب إليك مما تظن، ويكتب الله لها جوابًا يطمئن قلبك كما طمأن قلب كليمه موسى عليه السلام.

✦ ❖ ✦ خاتمةٌ طيّبة✦ ❖ ✦

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ما أعظم هذا المشهد... وما أطيب أن تكون آخر كلماتٍ يسمعها العبد عند رحيله عن هذه الدنيا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

سلامٌ بعد تعب الدنيا، وسلامٌ بعد الخوف، وسلامٌ بعد مجاهدة النفس، ثم تأتي البشارة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾.

تأمل هذا المشهد يا أخي القارئ... عبدٌ عاش في الدنيا، أخطأ وتاب، وضعف واستغفر، وغفل ثم عاد، وجاهد نفسه كلما ابتعدت عن طريق الله.

لم تكن حياته كاملة، ولم يخلُ طريقه من التقصير، لكنه لم يرضَ أن يبتعد عن ربه، ولم يجعل ذنبه سببًا لليأس، بل كان كلما سقط نهض، وكلما ابتعد عاد.

حتى جاء اليوم الذي انتهت فيه رحلته... فاستقبلته الملائكة بالسلام.

ما أعظمها من خاتمة!

ولهذا لا تسأل نفسك فقط: كم بقي من عمري؟

بل اسأل:

على أي حال أريد أن ألقى الله؟

فالعبرة ليست أن تمرّ حياتك بلا خطأ، فهذا لا يكون لبشر، وإنما أن يكون آخر طريقك إلى الله، وأن تكون كل عودةٍ بعد تقصير أقرب بك إليه.

فابدأ من اليوم بما تستطيع.

تب عن ذنبك،

وأصلح ما بينك وبين الله، وردَّ حقوق العباد، وأحسن عملك، واجعل قلبك دائم الرجوع إلى ربه.

فلعلّك لا تعلم متى يأتي الرحيل، لكنك تستطيع أن تختار كيف تمضي إليه.

وما أجمل أن تكون نهاية هذه الرحلة كما وصفها الله:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

اللهم اجعلنا ممن تتوفاهم الملائكة طيبين، وثبّتنا عند الموت، وحسن خاتمتنا، واجعل خير أيامنا يوم نلقاك، وارزقنا دخول الجنة برحمتك، وصحبة نبيك ﷺ في الفردوس الأعلى.

بيني وبينك...

عزيزي القارئ...

ها قد حانت نهاية هذا الكتاب، ولكنني أريدك أن تعلم أن نهايته ليست نهاية رحلتك، بل لعلها تكون بدايتها.

ستسألني: وكيف تبدأ بدايتي؟

سأقول لك: بعودتك إلى خالقك.

نعم، كلنا مقصرون، وكلنا نحتاج إلى رحمة الله وهدايته، ولكن لا تجعل أمنية الإصلاح مجرد أمنية تقولها: «متى أصلح؟ ومتى أعود؟»

ابدأ الآن.

فاليوم فرصة جديدة، وهذه الدقيقة التي تقرأ فيها كافية لأن تطرق باب الله، وباب الله لا يُغلق في وجه من أراد الرجوع إليه.

وقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

فلا تنتظر أن يتغير كل شيء حولك حتى تتغير أنت، ولا تقل: سأبدأ غدًا؛ فمن يضمن لك أن تبلغ الغد الذي تنتظره؟

قم من هذه الساعة، بل من هذه الدقيقة، وأعلن رجوعك إلى الله.

استغفر لذنبك، وتب إليه، وارفع يديك وقل: يا رب، اهدني وأصلحني وثبتني، ولا تكلني إلى نفسي.

وأنا في هذه الصفحات الأخيرة لن أحدثك كمَن يلقي عليك موعظة، ولا أريد أن أضع نفسي في مقام من ينصحك من مكان بعيد، وإنما أحدثك بصفتي أخًا يرجو لك الإصلاح والثبات، ويرجو ذلك لنفسه قبل أن يرجوه لك.

لقد مررنا معًا في صفحات هذا الكتاب على اليقين، وتعلمنا أن لنا ربًا رحيمًا كريمًا، قادرًا على كل شيء، إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون.

ومررنا على الصبر، وعرفنا أن البلاء ليس دائمًا علامة غضب، وأن المؤمن قد يُبتلى ليُطهَّر ويُرفع، وأن الصبر وإن كان ثقيلًا على النفس، فإن عاقبته عند الله عظيمة.

ومررنا على التوكل والرضا، وتعلمنا أن ما منعه الله عنك ليس بالضرورة حرمانًا، فقد يمنعك رحمةً بك، ويعطيك رحمةً بك، وهو أعلم بما يصلحك منك.

فارضَ عن ربك، وتوكل عليه، واعلم أن الله أرحم بك من نفسك، وأن ما عنده خير لك مما تختاره لنفسك لو علمت الغيب.

ثم تحدثنا عن الإحسان، وعرفنا أن الإيمان ليس كلماتٍ تسكن القلب فقط، بل عملٌ يظهر أثره في عبادتك، وفي أخلاقك، وفي والديك، وفي الناس، وفي كل ما تمتد إليه يدك أو يخرج إليه لسانك.

ثم وصلنا إلى هذه الصفحات الأخيرة، حيث وقفنا أمام حقيقة لا يستطيع أحد الهروب منها:

أننا إلى الله راجعون.

وقد تسألني الآن:

إذن، هل معنى ذلك ألا أعيش الدنيا؟

وأقول لك: لا.

عِشها، وتمتع بما أحل الله لك، وتزوج، واعمل، واطلب الرزق، وابنِ مستقبلك، وأحب أهلك، وافرح بنعم الله عليك.

لكن لا تجعل الدنيا غايتك.

فهي دار عمل وابتلاء، وليست دار بقاء.

لسنا هنا لنجمع أكبر قدر من المال، ولا لننال أكبر قدر من الشهرة، ولا لنعيش لأجل شهواتنا ثم تنتهي الحكاية.

نحن هنا لغاية أعظم:

أن نرضي الله، ونعبده، ونعمر أيامنا بما ينفعنا حين نلقاه.

ومع ذلك، لا أريد منك أن تقول: سأغيّر حياتي كلها من الغد.

لا تحمل نفسك ما لا تطيق.

ابدأ بشيء صغير، ولكن اثبت عليه.

صل رحمًا كنت تقطعه.

اترك شيئًا من الحرام كنت تستهين به.

احفظ بصرك عما لا يرضي الله.

حافظ على صلاتك.

أكثر من الاستغفار.

اقرأ شيئًا من القرآن كل يوم.

أحسن إلى والديك.

اترك كلمة تؤذي بها غيرك.

اختر شيئًا واحدًا، وابدأ به.

فقد قال النبي ﷺ:

«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

ولا تستحقر عملًا صالحًا لأنه صغير؛ فرب عملٍ صغير عظمته النية، ورب كلمةٍ ظننتها عابرة كان لها أثرٌ لا تعلمه.

واعلم يا أخي أن طريق الرجوع إلى الله ليس دائمًا سهلًا.

ستمر عليك أيام تشعر فيها بالقوة، وأيام تشعر فيها بالفتور.

ستجاهد نفسك، وستعود إليك بعض الشهوات التي ظننت أنك تخلصت منها، وستضعف أحيانًا، وقد تسقط.

فلا تظن أن سقوطك يعني أن الطريق انتهى.

إذا سقطت، فقم.

وإذا أذنبت، فتب.

وإذا ابتعدت، فارجع.

وإذا فترت، فلا تستسلم.

ستكون في داخلك معركة بين ما تهواه نفسك، وبين ما يريده الله منك.

فاثبت.

ولا تدخل هذه المعركة أعزل.

اجعل معك سلاحين لا تستغني عنهما:

القرآن والدعاء.

إذا ضاقت بك نفسك، فافتح القرآن.

وإذا عجزت عن إصلاح نفسك، فارفع يديك إلى الله.

وقل له بصدق:

يا رب، أعنّي على نفسي.

فأنت لا تصلح نفسك بقوتك وحدها، وإنما تستعين بالله، وتبذل السبب، وتجاهد، وتعود إليه مرة بعد مرة.

عزيزي القارئ...

ها قد شارفت النهاية، ووضعت الأقلام، وانتهت صفحات هذا الكتاب.

لكن لا أريد أن ينتهي الأمر هنا.

فالآن تبدأ مرحلة العمل.

فالعلم الذي لا يتحول إلى عمل لا يغيّر صاحبه.

لا تجعل هذا الكتاب شيئًا قرأته، ثم أغلقته، ثم عدت إلى حياتك كما كنت.

خذ منه شيئًا واحدًا.

آيةً أثرت فيك، فاعمل بها.

نصيحةً أيقظتك، فابدأ بها.

ذنبًا تذكرت خطره، فاتركه.

عبادةً قصّرت فيها، فارجع إليها.

وإذا كان بينك وبين الله أمرٌ طال تأجيله، فلا تؤجله أكثر.

ابدأ اليوم.

لا تنتظر غدًا.

ولا تنتظر أن تصبح صالحًا تمامًا حتى تعود إلى الله؛ عد إلى الله ليصلحك.

وإن كنت تسألني: من أين أبدأ؟

فسأقول لك:

ابدأ من أقرب باب تستطيع الوصول إليه.

من صلاتك، أو من توبتك، أو من لسانك، أو من بصرك، أو من والديك، أو من قلبك.

ثم اثبت.

واجعل لك في كل يوم خطوةً ولو كانت صغيرة.

وأريد منك أيضًا أن تحفظ قلبك، وأن تستعفف، وأن تجاهد شهواتك، وألا تجعل ما في الدنيا يقودك حيث لا تريد.

واحفظ وعد الله:

﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

فكن طيبًا، واستعفف، واصبر، وأصلح نفسك، واختر ما يرضي الله.

فالاختيار ما زال بيدك.

وفي النهاية، لا أملك لك شيئًا إلا أن أدعو الله لك.

أسأل الله أن يجعل هذا الكتاب سببًا في هداية قلبٍ أرهقه البعد، وأن يجعله نورًا لمن يبحث عن الطريق، وأن ينفع به قارئه، وأن يجعله حجةً لنا لا علينا.

أسأل الله أن يصلح به قلبًا، وأن يرد به عبدًا إلى ربه، وأن يوقظ به غافلًا، وأن يثبت به من بدأ طريقه إليه.

وإن أخطأنا فمن أنفسنا، وإن أصبنا فمن الله وحده.

وإن كان في هذه الصفحات خير، فمن فضل الله علينا، وإن كان فيها نقص، فذلك من ضعفنا وقصورنا.

وما أرجوه منك، أيها القارئ، ليس أن تتذكر اسم الكاتب، ولا أن تتذكر كل كلمة قرأتها، وإنما أن تتذكر ربك.

فإن خرجت من هذا الكتاب وأنت أقرب إلى الله مما كنت عليه حين فتحته، فقد كان لكل هذه الصفحات معنى.

وإن خرجت منه وقد عقدت في قلبك نية صادقة أن تبدأ، فابدأ الآن.

فالكتاب انتهى... لكن الطريق إلى الله لم ينتهِ.

بل لعل هذه اللحظة هي أول الطريق.

أسأل الله أن يأخذ بأيدينا وإياكم إليه، وأن يثبتنا حتى نلقاه، وأن يجعل خير أيامنا يوم نلقاه، وأن تتوفانا ملائكته طيبين، فيقال لنا:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كان معكم، بكل محبة ورجاء،

العبد الفقير إلى الله: بلال الباشا

وتم بحمد الله ورحمته